أم المماليك

أعظم امرأة مصرية فى القرن الـ ١٨

بقلم

نجيب توفيق

دار العرب للبستانى

القاهرة

الغلاف بريشة الفنان

جمال قطب

أشرف على مراجعة الطبعة

توفيق نسيم

مقدمة

هذه صفحات مطوية من التاريخ ، كادت أن تنسى وتندثر ، أُهيل عليها تراب النسيان . واختفت تحت ركام الأحداث والظروف ، ولكن آن لهذه الصفحات أن تنشر ، ليقرأ فيها الجيل الحديث ، أروع صفحة لأعظم امرأة ظهرت فى مصر خلال القرن الثامن عشر .

لقد شاءت مظالم الحاكمين ، أن تحرمنا من صورة وطنية رائعة ، نقرأ فيها حياة زعيمة نسائية مجيدة ، لا فى مصر فحسب ولكن فى الشرق بأسره .

إن مصر وقد كتبت فى هذه الأيام تاريخها من جديد ، وأشرقت مطالع مجدها بادية فى الآفاق ، بعد كفاحها الطويل فى سبيل حريتها وتأمين مستقبل أجيالها العتيدة ، لن تنسى تخليد ذكرى من غمط حقهم ، وتنوسيت سيرهم ، وأُنكر فضلهم ، إرضاء لنزوات الحكام من أسرة محمد على .

إن من خدم أبناء هذا الوطن ، فى أى عصر من عصور التاريخ السالفة ، وقدم ما يقوم برهانا على حبه لمصر وتدفقت من قلبه غيوث العطف والرحمة فى أوقات الشدة لجدير بأن يخلد اسمه ، وتنشر صفحة مآثره . ولسنا فى حاجة للتدليل على إرتباط أجيال الأمة فى مجموعها ، لأن الأمة

وحدة قائمة ، تشمل الماضى والحاضر والمستقبل ، وكل جهد يبذله جيل من الأجيال ، سوف يتأثر به ما يأتى بعده من أجيال .

لقد شاءت الأقدار أن تغمر حياة امرأة من أفضل نساء مصر فى جيلها ، ظهرت قبل أن يظهر للمرأة المصرية أى أثر فى الحياة العامة فى التاريخ الحديث . (يبدأ التاريخ الحديث من عام ١٤٥٣ وهو تاريخ سقوط القسطنطينية فى أيدى العثمانيين) ، وكانت المرأة الغربية ما زالت تغط فى نومها ، وتكاد تبدأ أول مراحل جهادها فى سبيل التحرير . وقد لقبها كثير من المؤرخين بملكة مصر غير المتوجة فى القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر .

تلك هى السيدة نفيسة المرادية والتى خصص هذا البحث لسرد تاريخ حياتها ، وإظهار روائع سيرتها ، وجزيل مآثرها على مصر وشعبها .

وقد اشتهرت يوما بلقب « أم المماليك » وفى الحقيقة كانت الأم الأولى لشعب مصر ، لما غمرته به من حب وعطف وبذل ، فى أخطر مراحل تاريخه، وفى أسوأ ظروف مر بها حين أنصبت علية المظالم والكوارث .

إن لهذه المرأة الفاضلة فى عنق مصر دين كبير ، يعز على التثمين والتقدير ، وأقل ما يجب على جيلنا ، أن يحفظ لها جميل ما أسدت ، وكريم ما قدمت ، وأن تحتفل بذكراها المرأة المصرية ، لأن ذكراها نشر زكى يضوع الأنداء ، وشرف وأى شرف للمرأة المصرية التى علا شأنها فى القرن العشرين ، وتبوأت أعلى المناصب بفضل ثقافتها وتحصيلها ، حين تحتفى بتخليد امرأة كانت نادرة زمانها ومعجزة أيامها ، وقد برزت فى وقت ندر فيه أن يكون لها مثيل من بين شهيرات النساء فى الشرق .

ظهور المرادية

مع بدء الحركة التحريرية النسائية فى الغرب

كان ظهور المرادية فى مصر على مسرح الحياة الاجتماعية ، حدثا خطيرا فى الشرق العربى وقد اضطلعت بأعمال عظيمة ، لا تقوم بها إلا شخصية تمتاز بصفات بارزة ، وتشاء الظروف أن تبدأ فى نفس الوقت الحركات التطورية لتحرير المرأة فى الغرب ، وسنتكلم عن ذلك فى السطور التالية :

لقد أتى على المرأة ، كما أتى على الإنسانية جمعاء ، عصور مظلمة استغرقت العصور الوسطى ، فتوارت فيها بذور التحرير تحت ركام من ضباب الزمن وعنف الاضطهاد، لكنها لم تمت قط ، بل كانت هنالك فى أعماق الضمير الإنسانى تنتظر الفجر لتخرج إلى النور ملء الحياة ، ولقد ظهرت فى أظلم العصور شخصيات نسائية بارزة تبشر بالفجر المرتقب .

لاحت طلائع النور فعلا مع الثورة الفرنسية ، وليس معنى هذا أن دستور الثورة قد عمد إلى تحرير النساء بصفة خاصة ، ولكنه اتجه إلى تحطيم الفروق بين الطبقات الاجتماعية غير أن الهزة الفكرية والاجتماعية التى زلزلت بها الثورة آثار القرون الوسطى ، لم تستثن النساء ، ولم تمر بهن عبثا ، فقد ظهرت باكورة هذه الثمار فى كتاب مارى ولستونكرافت عام ١٧٩٢ (Mary Wollstonecraft) وسمته (تبرير حقوق النساء) ، ولكن قضية التحرير احتاجت نحو أربعين عاما لكى تظهر بوادر الاهتمام فى عام ١٨٣٨ ، فما أهلَّ القرن العشرين ، حتى كان الاتحاد النسائى الذى ألفته

الزعيمة بنكهرست عام ١٩٠٣ ، يخطو بالمعركة إلى دورها الحاسم الذى توجه الظفر بعد ربع قرن ، كما اعترف للمرأة بحقوقها المدنية وتم هذا الإعتراف على مراحل فيما بين ١٨٣٨ إلى ١٩٣٥ ، ثم تحريرها من القيود التى كانت تلجمها فى موقف الطلاق وتنكر حقها الطبيعى فى حضانة طفلها مادام الأب حيا ، وتحررت كذلك من أسر الجهل ، ففتحت أمامها أبواب المعاهد المختلفة من ابتدائية وثانوية وعالية ، وبلغ عدد الطالبات فى كليات الآداب والعلوم والطب فى إنجلترا عام ١٩٢٦، ٧٨٧٣ طالبة ، وكذلك خطت المرأة الأمريكية خطوتها الأولى نحو التعليم العالى عام ١٨٣٣ فأنشئت مدرسة النورمال فى ليكنجستون سنة ١٨٣٩ ثم تلتها كلية الطب النسوية عام ١٨٤٢ فى نيو إنجلند ، بعد أن سبقتها جهود الرائدات أمثال أماويلارد التى أسست مدرستها الخاصة سنة ١٨٢١ فى نيويورك ، ومارى ليون التى أقامت مؤسسة لتعليم البنات فى سوث هارلى عام ١٨٣٧ .

ولقد اقترنت حركة التحرير النسوى فى أمريكا فى أول الأمر بثورة تحرير العبيد ، وكان ظهور المرأة فى المحافل كخطيبة تدافع عن مأساة الرقيق ، ممهدا للاعتراف بقوتها ومواهبها وأهلتها للتحرير ، وبدأت الطلائع تظهر بعد عام ١٨٣٢ ، فتولت « لوكريسياموت » ثم « أليزابت سانتون » ، قيادة جيش التحرير ، إلى أن اعترف بحقوق المرأة كحقيقة معلنة معترفابها قانونيا ، عقب كفاح سوزان أنتونى زهاء نصف قرن وقد ألقت آخر دفاع لها عن القضية فى بلتيمور عام ١٩٠٦ قبل وفاتها بشهر واحد .

وحينما ندير النظر إلى حركة التحرير فى الشرق ، فنحسبها صدى لذاك الذى حدث فى أوربا وقد يصدق هذا إلى حد كبير ، ولكن تحرير المرأة الجديدة فى مصر يعتمد فى حقيقته وجوهره إلى أصول إسلامية عريقة ، وإن أخذ شكله وصورته الأوضاع الغربية التى نقلها إلينا الرواد الأوائل فى مستهل القرن العشرين ، بعد أن شاهدوا مدى ما يفيده الغرب من تحرير نسائه ، وكانت البيئة الشرقية إذ ذاك مستعدة لسماع شىء من هذا ، إثر الهزة العميقة التى أحدثتها (حملة نابليون بونابرت) على مصر ، والتى دكت حواجز وأسوار ظلت تفصلنا عن العالم الخارجى قرونا عديده .

تحرير المرأة فى مصر

وقد تمثل مظهر تحرير المرأة فى مصر ، أول ما تمثل فى تمزيق الحجاب حين خرج عن غايته الأولى من عزة الصون إلى لون من القيد يحول دون اتصال المرأة بالدنيا من حولها ، ثم كان التحرير الحق فى إطلاق المرأة من أسر الجهالة ، والاعتراف بحقها فى التعليم ، ففتحت أمامها أبوابه الموصدة ، وأتيح لها أن تتزود بما شاءت من ثقافة عالية أنضجت وعيها ، وحررت عقلها من الجهل والأوهام ، وارتفعت بها إلى مستوى كريم من الإنسانية المستنيرة .

ولا بد أن نذكر فى هذا المجال الرعيل الأول من رواد الحركة التحريرية فى مصر الذين كانوا فى طليعتها فى القرن التاسع عشر وهم :

(١) رفاعة بك رفاعة الطهطاوى المثقف المصرى الأول ، الذى أنشأ جسور الاتصال بالثقافة الغربية ، وكان إماما لأول بعثة مصرية أرسلت إلى أوربا ، ثم أنشأ أول كتاب لتعليم المرأة سنة ١٨٧٢ وهو « المرشد الأمين للبنات والبنين » .

(٢) السيدة جشم آفت خانم أفندى الزوجة الثانية للخديو إسماعيل التى أنشأت أول مدرسة لتعليم البنات بالسيوفية فى ١ / ١ / ١٨٧٣ وعينت السيدة روز ناظرة لها ، ثم شرعت فى بناء مدرسة كبيرة لهذا الغرض ولم تنفذ بعد خلع الخديوى إسماعيل وشغل بناء هذه المدرسة الكبير ، بوزارة الأشغال فى شارع القصر العينى فيما بعد .

(٣) الصحفى الكبير وخطيب الثورة العرابية السيد عبد الله النديم ، الذى نادى بتعليم المرأة وخصص لها فى مجلة التنكيت والتبكيت قسما خاصا لتثقيف المرأة ، وشرع فى إخراج أول مجلة نسائية فى مصر ، وكان نفيه عن مصر ١٨٩٢ سببا فى عدم تنفيذ المشروع .

(٤) المستشار الكبير قاسم بك أمين الذى أصدر كتابين وهما « تحرير المرأة » ، « والمرأة الجديدة » فى السنوات الأولى من العقد الأول للقرن العشرين ، وتحمل غضب الخديوى عباس حلمى ومنعه من دخول السراى لهذا السبب .

نشأة المماليك

مقدمة تاريخية :

يبتدئ تاريخ المماليك بإقبال أواخر الخلفاء الفاطميين ، على شراء المماليك الشبان بكثرة من قارة آسيا ، لاتخاذهم حراسا وبطانة ، واستمرت هذه الحال حتى زمن الدولة الأيوبية . وقد استفاد بهم صلاح الدين أعظم الفوائد ، فقد أنشأ منهم أشد الجيوش ، قهر بها جيوش الفرنجة فى جميع الحروب الصليبية ، وصان بها استقلال مصر — ولكن خلفاءه ضعفوا عن أن يستخدموهم كما استخدمهم صلاح الدين ، حتى إذا ولى الحكم الملك الصالح ، أكثر من ابتياع المماليك ، وجعل منهم أمراء دولة ، فاشتد ساعدهم وقوى جاههم ، حتى انتهى بهم الأمر إلى قتل آخر ملوك الدولة الأيوبية وهو السلطان توران .

وكلمة مملوك ، هو اسم مشتق من (الفعل) ملك — وهو ظاهر المعنى ولا يحتاج إلى إيضاح وقد ذكر المؤرخون أن منشأ المماليك من جهات قفجان من شمال آسيا . وإنه لما غزا المغول تلك الأصقاع تحت قيادة « باتوجان » حفيد جنكيزخان ، ساموا أهلها الذل وفتكوا بهم فتكا ذريعا ، حتى هاجر سكان الولايات القزوينية والقوقازية من ديارهم ، وضعفت قبائلهم ، وتشتتت فى بلاد آسيا الصغرى ، وكانت تجارة الرقيق الأبيض والأسود فى شدة انتشارها ، فكان النخاسون يبتاعون أحسن

أبنائهم ، وأجملهم وأقواهم ، وكانوا أحيانا يختطفونهم فيبيعونهم لمن شاء من الأمراء والأعيان والأغنياء ، فيشب الفتى فى مقامه الجديد وقد نسى قومه وجنسيته ، واندمج فى سلك أمثاله من المماليك ، تحت رعاية مملوك منهم أو أمير من الأمراء ، يقربونه إليه ، ويحبونه لولائه بعد أن يشتد ساعده فى خدمته ، فيرقونه إلى المراتب الأعلى . وعند ذلك تتطلع نفسه إلى مواطن العز ومنازل الأمراء والشرف بل إلى الملك ذاته .

لأنهم كانوا يعرفون أن أمثالهم من المماليك الأرقاء ، الذين ابتيعوا صغارا ، وربوا فى أحضان أسيادهم وملوكهم — شبوا على الفروسية والإقدام ، ووصلوا إلى أرقى مناصب الملك والسيادة — ولم يكن يخفى على صغيرهم قبل كبيرهم أن سلاطين المماليك بعد الدولة الأيوبية ، وجميع الملوك والسلاطين لم يكونوا إلا مماليك أو أولاد مماليك مثلهم .

ويمتاز البكوات المماليك ، بأنهم امتزجوا بالمصريين ، واندمجوا أكثر من سابقيهم فى الكتلة الأهلية — وقد عاشوا كدأبهم فى الحياة المطلقة ، فقليل منهم من تزوج وكون أسرة — إذ كان دينهم الحروب والفروسية ، ومعظمهم كان يموت فى ساحات الوغى وسنه لا يتجاوز ٣٥ سنة ، ومن عاش منهم عيشة هادئة ،ورضى بالزواج (وهو النزر اليسير) كان نسله يندمج على مر الأيام فى الدماء المصرية .

وكان المماليك يعيشون حياة مترفة ، فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن ، على غير عادتهم فى معيشتهم الأولى التى يغلب عليها الشظف والضنك ، وصارت حلة البك لا يقل ثمنها عما يعادل (ألف جنيه) الآن مع عظم (قيمة النقود فى تلك الأيام) ولا يمتطون إلا الخيول العربية

الأصيلة ، التى لا يقل ثمن الواحد منها فى ذلك الوقت عن ٣٠٠ جنيه ولم يكن ذلك قاصرا على البكوات أنفسهم بل أن مماليكهم الذين لم يرتقوا بعد إلى مراتب الرئاسة ، كانت ركائبهم مزينة بأفخر الحرائر ، ومزركشة من كل جانب بالذهب والفضة .

وقد ذكر الرحالة ڤولنى[1] (Volney) أن على بك الكبير اشترى خنجرا مرصعا بالجواهر الكريمة بمبلغ (٢٥٠٠٠ محبوب) وعند موته كان فى حيازته ٨٠٠ ألف محبوب ، ومتروكات ذهبية بمبلغ ٣ ملايين محبوب وهو ما يقدر بمبلغ ٢ مليون جنيه مصرى بالعملة الحالية .

ورغم هذا التبذير، فإن حالته كانت مطاقة ، لأن ما كان يجبى من الضرائب من التجارة الأفرنجية ، التى أحيا طريقها على بك ، كان يصرف فى داخل البلاد ، وكانت بيوت المماليك — فى طول البلاد وعرضها — مفتوحة للقادمين أثناء النهار والليل ، وكانوا فى الأعياد يوزعون الأغذية على الفقراء والمحتاجين .

كيف يتولى شئون البلاد مماليك يعرضون فى أسواق الرقيق :

لما كان الإسلام لا يعترف بأفضلية عربى على أعجمى ، عملا بمبدأ (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) حتى توفرت الكفاية والقدرة على الاضطلاع بشئون الحكم ، وبالأخص إذا تميز هؤلاء المماليك ، بعبقرية

---

(١) Voyage en Egypte et Syrie Pendant les annéés 1783 – 1785
Par C.F. Volney.

طبع فى باريس سنة ١٧٨٧

حربية ، وقد أصبحوا فى أواخر القرن ١٨ وقبل ذلك ، ولا فرق بينهم وبين أهل البلاد ، إلا من حيث البشرة وعجمة خفيفة فى اللسان ، وفيما عدا ذلك فهم مشتركون معهم فى العادات والتقاليد والثقافة وقد نسوا أوطانهم الأصلية وخلفوا جنسيتهم الأولى وتأقلموا مع سكان مصر .

وقد فات المؤرخين أن لمصر دون بقاع العالم ، مقدرة عجيبة على هضم جميع الأجانب ، الذين يدخلون فى عجلة سير حياتها ، وتجعل منهم على مر السنين مصريين .

وقد كان المماليك يسمون أنفسهم بالمصريين ، كما أطلق الجبرتى مؤرخ ذلك الزمن هذا الاسم عليهم .

نظام الحكم فى عهد المماليك

دخلت مصر فى حوزة الحكم العثمانى ابتداء من ١٥١٧ م (٩٢٣ هـ) باستيلاء السلطان سليم على البلاد وزوال سلطنة المماليك الشراكسة منها ، فاستتبع الفتح العثمانى وضع نظام جديد فى الحكم ، وهو النظام الذى رزحت تحته البلاد نحو ثلاثة قرون متعاقبة من سنة ١٥١٧ إلى سنة ١٧٩٨ . وهذا النظام من وضع السلطان سليم ، وهو إيجاد سلطتين تتنازعان الحكم وتراقب كلتاهما الأخرى : الأولى سلطة نائب السلطان (الوالى) ، والثانية سلطة رؤساء الجند ثم وضع أيضا نواة السلطة الثالثة وهى سلطة البكوات المماليك الذين رجع إليهم حكم مديريات القطر المصرى. وكان التنازع بين نائب السلطنة (الوالى) ورؤساء الجند ، قد ظهرت بوادره فى أوائل العصر العثمانى ، وهذا ما كان يرمى إليه السلطان سليم من إيجاد سلطتين متنازعتين ليضمن بقاء الفوضى فى البلاد ويطمئن على تبعيتها للسلطنة العثمانية[1] .

وذكر ابن أبى السرور البكرى : « إن السلطان سليم إختار من أمراء الجراكسة أربعين أميرا وجعل لكل منهم أربعين عثمانيا ، وأمر ألا يكتبوا فى سفر ولا سواه غير حراسة الجسور وهم الذين يقال لهم أمراء الجراكسة »[2] .

---

(١) الجزء الثالث من تاريخ مصر لابن إياس المعروف ببدائع الزهور فى وقائع الدهور

(٢) الروضة المأنوسة فى أخبار مصر المحروسة لابن أبى السرور البكرى .

ولنأتِ فى السطور التالية باختصاصات وأعمال كل سلطة من السلطات الثلاث السابقة :

الوالى : صاحب السلطة الأولى ، ويلقب بالباشا ، ويعرف بنائب السلطان فى حكم البلاد فهو الذى يمثله ، ويبلغ أوامره لرجال الحكومة ويراقب تنفيذها ، وله الرئاسة على عمالها ، على أن سلطته محدودة مقيدة ، ذلك أن السلطان سليم خشى لبعد مصر عن مركز السلطنة أن يطمح ولاتها إلى الاستقلال بها والخروج على حكومة الآستانة ، فجعل مدة الوالى سنة واحدة ، تنتهى ولايته بنهايتها ما لم يصدر فرمان بتجديدها لسنة أخرى .

رؤساء الجند : والسلطة الثانية هى سلطة رؤساء الجند[1] ، وهم قواد الفرق التى غادرها فى مصر بعد احتلالها ، وكانت الحامية العثمانية التى تركها السلطان سليم تتألف من نحو اثنى عشر ألفا من الجنود ، وظيفتهم حفظ النظام فى القطر المصرى والدفاع عنه ، وكانوا موزعين بين القاهرة وأمهات مدن القطر ، ومنتظمين فى ست فرق ، تسمى كل فرقة (وجاق) . وكان لكل فرقة ضباط يسمون « الوجاقلية » وكبيرهم يسمى « الأغا » أى رئيس الفرقة ومن اجتماع أولئك الضباط يتألف مجلس شورى الباشا المسمى بالديوان . ولهذا الديوان سلطة كبيرة فى إدارة الحكومة ، لأن الباشا لا يستطيع إبرام أمر إلا بموافقته .

المماليك : إن المماليك الذين أقرهم السلطان سليم حكاما لمديريات

---

(١) تاريخ الحركة القومية فى مصر الجزء الأول لعبد الرحمن الرافعى .

أو (أقاليم) مصر هم بقايا الدولتين اللتين كان إليهما الحكم فى مصر على التعاقب زهاء ٢٦٧ سنة ، فالأولى هى دولة المماليك البحرية ، وسمى حكامها بالمماليك البحرية لسكنهم بجزيرة الروضة والفضل فى إنشائهم للملك الصالح نجم الدين الأيوبى كما سبق ذكره وقد حكموا مصر من سنة ١٢٥٠ إلى ١٣٨٢ .

والثانية هى دولة المماليك البرجية ، وأصلهم من بلاد الشركس والقوقاز ، وسبب تسميتهم البرجية أن المنصور قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية عهد إليهم حماية القلاع والحصون وأسكنهم فى الأبراج فسموا بالبرجية ، وهم الذين حكموا مصر من سنة ١٣٨٢ إلى سنة ١٥١٧ .

فالمماليك من بقايا هاتين الدولتين هم الذين أقرهم السلطان سليم على حكم مديريات القطر المصرى وجعل منهم السلطان سليمان القانونى ٢٤ بيكا أو سنجقا تتألف منهم الإدارة المحلية للبلاد ، فمنهم حكام المديريات « السناجق »[١] ، ومنهم بعض كبار موظفى الحكومة وهم «الكخيا»[٢] أى نائب الوالى و «الدفتردار»[٣] و « الروزنامجى »[٤] وأمير

---

(١) سموا سناجق لأنهم عند ترقيتهم إلى هذه المرتبة كانوا يتسلمون بيرقا أو سنجقا شارة البكوية .

(٢) الكخيا كلمة محرفة عن كلمة كتخدا ومعناها الوكيل أو النائب .

(٣) الدفتردار : هو المسئول عن إدارة الشئون المالية وضبط الخرج والدخل ، وسجلات ملكية الأراضى .

(٤) الروزنامجى : إدارة ضرائب الأطيان والإشراف على الحسابات المالية .

الحج والخازندار وقباطين ثغور دمياط والسويس والإسكندرية ، وكانت هذه الثغور على جانب عظيم من الأهمية لأنها بمثابة أبواب مصر ومنهم البكوات الخمسة حكام مديريات جرجا والغربية والشرقية والمنوفية والبحيرة أما مديريات القليوبية والمنصورة والجيزة والفيوم فكان حكامها يسمون الكشاف[١] . وهم وكلاء البكوات فى حكم المديريات ، وسلطتهم كالبكوات . وكان لكل مديرية ديوان خاص بها مؤلف من كبار موظفى المديرية وضباط الفرق وكان يستشيره البيك أو الكاشف وقلما كان يحدث ذلك . وكان تعيين الكخيا وقباطين الثغور يصدر به رأسا مرسوم من السلطان .

* * *

ولكن لم يستمر نظام الحكم السياسى ، كما وضعت قواعده فى عهد الفتح العثمانى ، ولم يكن للديوان عمل منظم فى إدارة الحكومة ، بل تركت البلاد تتقسمها أهواء رؤساء الجند والولاة ، وانتهز المماليك فرصة استمرار الحروب والمنازعات بين الفريقين ، فأخذوا يعملون على الانفراد بالحكومة ، وتطور نظام الحكم مع الزمن ، وانتهى التنافس بين السلطات الثلاث إلى تغلب سلطة البكوات المماليك واستأثروا بالنفوذ والحكم منذ النصف الثانى من القرن السابع عشر ، وساعدهم فى ذلك ما صارت إليه السلطنة العثمانية من الضعف ، بسبب حروبها المتواصلة ، واختلال

(١) الكشاف : جمع كلمة كاشف ، وهو المسئول عن كشف أحوال المديريات ، ولما اتسعت سلطتهم وصار لهم الحكم ، أخذ الكاشف يحكم المديرية أو جزء منها باسم البيك

(أم المماليك)

شئونها الداخلية وزاد من نفوذهم كثرة تغيير الولاة العثمانيين وعزلهم، فضعف شأنهم، وتراجع نفوذهم. بينما زاد المماليك نفوذا، لاحتفاظهم بعصبيتهم، بما استكثروا من الجند والأتباع الذين كانوا يشترونهم من بلاد الشركس والقوقاز والكرج، كما استمالوا إلى جانبهم أفراد الحامية العسكرية، إذ كان رجال « الوجاقات » قد استوطنوا مصر، واستقروا بها واندمجوا فى أهلها، واقتنوا الأملاك، فضعف ارتباطهم بعاصمة السلطنة العثمانية، وكانت إدارة الحكومة المدنية والمالية بيد المماليك واليهم توزيع الأعطية والأرزاق على الجنود، فصار هؤلاء تبعا لهم بحكم الروابط المادية ثم صار رؤساء الوجاقات وأغلب ضباطها من المماليك، فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية فى أيديهم. وهكذا اندمج أفراد الحامية العسكرية العثمانية بالمماليك بأواصر المصاهرة ولحمة القربى فأصبحوا ضمن حزبهم ومن أهلهم وعشيرتهم بعد أن كانوا معدين لحربهم وإخضاعهم. فتلاشت سلطة الولاة العثمانيين وعظم نفوذ المماليك واسترجعوا مع الزمن سلطة الحكم التى كانت للسلاطين البحرية والشراكسة، وصار لرئيس المماليك الذى يختارونه زعيما لهم ويلقبونه باسم « شيخ البلد » النفوذ الذى لا يعارض والكلمة التى لا ترد، وصارت مشيخة البلد بمثابة **إمارة مصر**. وعبث المماليك بالولاة العثمانيين، فمن لا يرضون عنه يعزلونه، وكانت طريقتهم فى ذلك، أن يرسلوا رسولا إسمه « أوده باشى » (من ضباط الوجاقات) يذهب إليه حاملا قرار الديوان بعزله. فيدخل إلى مجلسه ويحييه بكل أدب وإحترام ثم يثنى طرف السجادة التى يجلس عليها الباشا ويعلن إليه قرار العزل بقوله

(إنزل يا باشا) فتكون هذه الكلمة بمثابة أمر الخلع ، وينزل الباشا من القلعة ، ويصبح كأحد الأفراد العاديين بلا حول ولا طول . وصارت القلعة فى خلال القرن الثامن عشر بمثابة السجن للباشوات الذين كانت تعينهم تركيا ولاة على مصر ، وعبث المماليك بالجزية فكانوا لا يدفعون منها ما لا يروق لهم دفعه ، ويقتطعون منها ما يشاءون بحجة الإنفاق على مصالح البلد .

قال الرحالة فانسلب Vansleb ، يصف ما شاهده فى مصر سنة ١٦٧٢ من استئثار المماليك بالحكم :[١]

« إن كلمة البكوات فى الديوان كانت نافذة بحيث لم يكن الباشا يخالف لهم أمرا وكانوا يملكون عزله » .

---

(١) تاريخ الحركة القومية الجزء الأول لعبد الرحمن الرافعى

اضطراب الحكم فى البلاد

فى أوائل القرن ١٨

بلغ الاضطراب مداه فى أوائل القرن الثامن عشر ، إذ كانت الدولة العثمانية تعالج ما أصابها فى اسمها وكيانها ، وتلتفت إلى عدو مخيف وهو روسيا يهبط عليها من شمال البحر الأسود ، فى حين كانت النمسا تخز جانبها من ناحية الغرب ، فكانت لا تستطيع أن تمد يدا إلى ممثلها فى مصر فتنصره على الأمراء المصريين ، الذين ظلوا مع مضى السنين والقرون لا ينسون ذكرى موقعة « مرج دابق » ولا تغيب عن أذهانهم أن سليما الأول العثمانى قد عدا على دولة أسلافهم المجيدة فاغتصبها ونقل عنها ما كان لها من عز وعظمة . ولذلك كانوا يتحينون الفرصة ، كلما أتيحت لهم ، ولا يدعونها تنفلت من أيديهم بغير أن يستعيدوا شيئا من النفوذ والسلطة التى سلبت من أسلافهم منذ قرنين .

ولقد أعانهم على المضى فى سعيهم أن القرن الثامن عشر لم يدع لتركيا فرصة للتنفس من هجمات أعدائها المتوالية . فإن النمسا والروسيا لم تكتفيا بمهاجمتها بل أثارتا عليها من كان تحت حكمها من شعوب البلقان .

فكانت تركيا تخرج فى أوربا من حرب إلى حرب فى أثناء ذلك القرن ، وما تكاد ترتق فتقا حتى ترى فتقا آخر يتثاءب فى ناحية أخرى ، وما كان لها مع ذلك أن تنصرف إلى أمور مصر وما كان يحدث فيها من أحداث

تؤذن بالاستفحال ، ولا يخفى مغزاها على أهل السياسة ، ولكن تركيا آثرت بطبيعة الحال إلى التضحية بالسلطة المطلقة فى مصر ، وسمحت بتسرب السلطة إلى أيدى الأحزاب المصرية المتشاحنة ، فإن هذا كان أهون خطرا ، وأيسر خطبا من تلك الثورات العنيفة التى كانت تهددها على الأفق الغربى .

ومن ثم شهد القرن الثامن عشر نبوغ سلسلة من الأمراء المصريين (المماليك) ينزعون السيادة من ممثل السلطان (الوالى) شيئا فشيئا ، ويختطفون من يده أزمة الحكم زماما فزماما حتى أصاروه اسما ورمزا ، لا حقيقة لحكمة ولاهيبه له .

ولكن ذلك الخطب مهما بلغ ، كان أهون على السلطان من عداوات أوربا ، إذ كان الأمراء المصريون على كل حال يذعنون لسلطته الدينية بصفته خليفة المسلمين ، ولا يحاولون بحال أن يخرجوا عن سلطانه الروحى . فكان فى ذلك الخضوع عزاء كبير عن فقدان السيادة وخسارة الحكم الحقيقى . وكان الأمل لا يزال يعاود تركيا ، أو بقول أدق كان الأمل لا يزال يعاود الساسة العثمانيين أن يدبروا مؤامرة محكمة يسترجعون بها السلطة بأن يسلطوا بعض الأحزاب المصرية على بعض ، فيستطيعون بهذه الوسيلة أن يهلكوا الأحزاب جميعا ، إذ أتى الوقت الذى تفرغ فيه الدولة العثمانية من شئوونها الهامة فى أوربا .

تنازع الأمراء

وكان أول من تحققت له السلطة فى مصر من أبناء الأمراء المصريين إسماعيل بن إيواظ فى أوائل القرن الـ ١٨ ، فإنه استطاع أن يكون الحاكم المطلق فى البلاد مدة ثلاث عشرة سنة ، ولكن تنافس الأمراء واختلاف أحزابهم أدى بعد ذلك إلى إغتيال ذلك الأمير الشاب فقتل فى شبابه وعنفوان قوته، قبل أن يبلغ المدى الذى كان سيصل إليه لو أمهل ومد له فى الأجل !!

غير أن ذهاب إسماعيل بن إيواظ وخلو البلاد من سلطانه وحكمه لم يؤديا إلى عودة الأزمّة إلى أيدى العثمانيين ، فإنما كان أمراء مصر يتطاحنون فيما بينهم ليحل منهم أمير ناشئ يستقبل الحكم بدل أمير ذاهب . وكان بعض الأمراء يلتجئ إلى مساعدة الباشا أحيانا ، بل كان بعضهم يتزلف إلى الباشا ويتذلل له حتى يساعده وينفذ له تدبيره فى الإيقاع بخصمه الأمير المسيطر الحاكم ، فإذا تم الأمر وحدث الانقلاب ، ونزعت السلطة من خصمه الأمير المسيطر ، انقلب المتآمر على الباشا بعد أن كان من قبل آلة فى يده ، ووقف منه موقف الأمير السابق فيعيد سيرة الاستقلال والتغلب والقهر ، وهكذا أصبح الأمر بعد قليل فى قبضة الأمير الذى قتل ابن إيواظ ، وهو ذو الفقار ينازعه منافس خطير هو محمد جركس ، وعاد الباشا العثمانى إلى جوارهما قابضا على الريح .

واستمر الأميران على تنازعهما حتى انتهى أمرهما إلى التفانى ، فقتلا فى

النضال بعد حكم مضطرب دام نحو ستة أعوام .

وحاول الباشا بعد ذلك النضال أن يسترجع نفوذه وساعدته الدولة العثمانية على ذلك ، إذ كانت قد فرغت حينا قصيرا من منازعات أوربا ، وفازت بشيء يشبه النصر فى منتصف القرن الـ ١٨ قبل أن تقبل عليها روسيا فى حملتها الجارفة فى عهد الإمبراطورة كاترين الثانية .

وكانت الطريقة التى اعتاد ولاة مصر اللجوء إليها لاسترجاع النفوذ طريقة شاذة غير مستقيمة ، وهى أن يوقعوا النفور بين بيوت الأمراء الكبار وبين زعماء الأحزاب المتنافسة يقصدون من وراء ذلك أن يقضوا على الظاهرين منهم فيثبت سلطانهم وتعود إلى مقامهم هيبته ، ولكن ذلك السعى لم يمنع من نبوغ رئيسين كبيرين ملأا فراغ تلك المدة وهما محمد بك قطامش ، ثم عثمان بك ذو الفقار .

وكان حكمهما بطبيعة الحال ممزقا مضطربا كثير الانقلاب والتغير ، فأما الأول فذهب ضحية مؤامرة دبرها الباشا وكان من نتائجها قتل عشرة من كبار أمراء العصر ، وأما الثانى فكاد أن يذهب ضحية لمؤامرة أخرى دبرها منافسوه بعد أن قضى على حكم مصر نحو سبع سنين ، ولكنه استطاع أن يفر ناجيا بنفسه فخرج من القاهرة فى سنة ١١٥٦ الهجرية وهى سنة ١٧٤٣ للميلاد وذهب إلى تركيا حيث قضى بقية عمره .

وقد ذكرنا هذه السنة دون غيرها من السنين ، إذ كان لها خطر خاص ، وذلك أن خروج عثمان بك ذو الفقار من القاهرة ، هز أهلها هزة عنيفة ، ولعله قد آلمهم كذلك إذ كان الناس يؤثرون أن ينبغ من أمرائهم من يبقى فى الحكم ويرعى المصالح ، وهو بين ظهرانيهم ، يؤثرونه على من كان يفد إليهم من وراء البحر من بلاد الروم (تركيا) لا يعرف لغتهم ، ولا

علم له بعاداتهم ولا بعرفهم ، فيحكم سنة أو بضع سنين ثم يذهب عنهم ، بغير أن يحدث حدثا ، إلا أن تكون مؤامرة دموية يعقبها فتور وسبات عميق . فلما أن رأوا أن أمراءهم إذا نبغوا لا يبقون إلا قليلا ، ثم يذهبون ضحايا المنافسات والمنازعات . آلمهم ذلك مرة بعد مرة . فلما رأوا أميرهم عثمان ذو الفقار يخرج هاربا وهو حى بعد أن أحكمت المؤامرة عليه وكادت تودى بحياته ، تأثرت نفوسهم ، وتعلق الحادث بخيالهم فأرخوا به ، فما زالوا بعد ذلك مدة طويلة وهم كلما جد جديد قالوا : قد حدث ذلك الحادث بعد مقدار كذا من السنين على خروج ذى الفقار[١] .

وإذا مات عظيم أو أدخل على نظام البلاد تغيير أرخوا ذلك من خروج عثمان بك ذى الفقار ، وكان أكبر الأمراء بعد خروج عثمان بك هو حسين بك الخشاب ، فأصبح حاكم البلاد الحقيقى وقضى على ذلك خمس سنوات أخرى . غير أن تطلع الأمراء إلى الحكم كان سنة متجدده فما يكاد أمير منهم يستقر على رأس الحكم حتى يتحرك له منافسون يريدون الحلول محله ، فإذا استطاعوا عزله بسهولة تركوا له الحياة أما إذا وجدوا منه عنادا وقوة أحكموا تدبير قتله . وكان نصيب الخشاب مثل نصيب عثمان بك ذى الفقار فإنه استطاع الهرب إلى الصعيد ، وتفرق عنه أصحابه ، ففسحوا الدولة جديدة زاهره ، وهى دولة إبراهيم بك وشريكه رضوان بك .

(١) كتاب السيد عمر مكرم تأليف محمد فريد أبو حديد .

قضى هذان العاهلان فى حكم مصر نحو ثمانى سنوات كانا فى خلالها صاحبى الأمر والسلطان وقسما بينهما أمور الدولة عن تراضى وتفاهم ، فذهب أولهما بتدبير شئون الإدارة والحرب وما إليها من مظاهر السلطة ، وذهب الآخر بالقيام على الشئون المدنية والعمل على تآلف القلوب وتقوية دعائم الحزب وإظهار أبهة الملك .

ولاحت فى مصر عند ذلك بشائر الازدهار الذى يصحب عصور الاستقلال المستقر ، فأينعت التجارة ، وعم الرخاء ، وظهرت أبهة الملك المصرى ، وكانت من آيات مجد ذلك العصر تلك النهضة الأدبية الكبرى التى كان مركزها وقطبها فى دار رضوان بك ، وكان لها أكبر دافع من أسلوب حياة هذا الأمير العظيم وحبه للأدب ، وانصرافه إلى حياة النعيم واللهو ، وساعد على تلك النهضة ، رخاء حال البلاد وكثرة خيراتها ، واستقامة خلق أهلها ، وانصرافهم إلى الجد والعمل المنتج فى كل النواحى .

كما أن إبراهيم كان فى هيمنته على شئون البلاد ومصالحها وحمايتها ، رجلا قوى الشكيمة ذا غناء وبلاء ونفوذ رأى وبعد نظر ، وإنه لمما يبعث على الاعتقاد باستقرار الأمور له وتمكنه من السلطة وانقياد البلاد والأحزاب له ، أنه مات حتف أنفه ، لم يقتل ولم يكد له أحد كبيرا عظيما ، غير أنه لما مات ، ذهب سيف الدولة وجنديها ، وبقى علمها رضوان بغير حام يدفع عنه . وكان رضوان بك على ما فيه من التآلف والتودد غير كفء لأصحاب المطامع من الأمراء فما مضت ستة أشهر حتى تحركت عليه الأحزاب ، وتطلع المنافسون إلى سلطانه ، وأخذوه

على غرة وهو يحلق شعره فى منزله . وكان له مملوك خائن اشترك مع المتآمرين ، فضربه عند إشارة متفق عليها برصاصة كسرت ساقه ، وحاول الهروب حتى بلغ خارج القاهرة مع ما كان فيه من ألم ونزف ، فمات فى ذهابه إلى الوجه القبلى فى جهة واقعة شرق وادى النيل عند « أولاد يحى » وكان ذلك سنة ١٧٥٥ م وتفرق بموته حزب ظل يملك زمام الأمور ويقبض على نواحيها تلك السنوات الثمانية . وعاد التنافس جديدا ليتمخض عن حدث فذ فى تاريخ مصر فى ذلك القرن ، وهو تملك على بك بلوط قبان الذى يلقب باسمه المشهور على بك الكبير .

على بك الكبير

كان على بك الكبير هو الزوج الأول للسيدة نفيسة المرادية ، وإليه يرجع الفضل فى تكوين شخصيتها والاهتمام بتعليمها وصقل عقلها ، وإبراز مواهبها ، وتغييرها تغييرا كليا من جارية شركسية إلى امرأة عالية المقام ، مزدانة بقلائد العلم والمعرفة ، توفرت لها جميع العناصر والمقومات المادية والأدبية والاجتماعية ، لتكون أول زعيمة نسائية لا فى مصر فحسب بل فى الشرق العربى بأسره . وإذا قورنت بغيرها من نساء الغرب الناهضات فى القرن الثامن عشر لاحتلت مكان الصدارة والزعامة بينهن ، ولذلك كان علينا دراسة تاريخ هذا الحاكم المملوكى العظيم ، لنقف على المؤثرات الأساسية فى شخصية نفيسة المرادية .

مولـده :

ولد عام ١٧٢٨ م ببلدة (أماسة) الروسية ، من أعمال القوقاز العثمانى ، تقع فى سفح جبال « قوة قاف » جنوب البحر الأسود ، وقد خضعت للحكم الروسى بعد ذلك عام ١٨٢٤ ، وكانت عاصمة هذا الإقليم تدعى « صفوق صو »

نشأ على بك ، كأحد أفراد عائلة مسيحية أرثوذكسية ، ورب هذه العائلة هو الأب داود أحد رعاة الكنيسة الأرثوذكسية ، وابنه كان اسمه يوسف . امتاز فى طفولته بالذكاء والشجاعة والإقدام . كان يأمل والده فى إعداده ليكون أحد رجال الدين ، ولكن شاء القدر أمرا أبعد ما يكون

عن رغبته ، فبينما كان يوسف مع نفر من أترابه فى رحلة للصيد بإحدى الغابات ، تفاجئهم إحدى عصابات قطاع الطرق ، وتخطف هذا الصبى من دونهم ، لامتيازه عنهم ، فى هيئته وملامحه وعلائم الصحة والقوة البادية عليه ، ثم باعته هذه العصابة لأحد كبار الرجال ، ممن يمارسون تجارة الرقيق وهو كرد أحمد ، الذى قصد به إلى الإسكندرية سنة ١٧٤٣ ، — وكان عمر يوسف آنذاك خمسة عشر عام — الذى باعه إلى مديرى الجمرك فى ذلك الوقت الأخوين اليهوديين إسحق ويوسف .

بيعه للمماليك :

تقرب مديرا الجمرك إلى الأمير إبراهيم بك الذى كان من الشخصيات المرموقة فى ذلك الوقت ، وأهديا إليه هذا الفتى ، وكانت هدية ممتازة حقا . فقد امتاز الفتى إبن الخامسة عشر بذكاء نادر ، وعينين تلمعان ببريق غريب ، فيه معنى الإرادة والحزم وقد قبل سيده هدية مديرى الجمرك برضا وإرتياح كبيرين ، وقام بتنشئته على خير وجه ينشأ فيه صغار المماليك فى تلك الأيام . فقد رباه على مبادئ الإسلام وسماه عليا ، وعلمه القراءة والكتابة بالتركية والعربية ، ثم دربه على فنون الحرب والفروسية ، ثم لما اطمأنت نفس الفتى إلى أستاذه ، أظهر مزيدا من الإخلاص والولاء له ، فرقاه سيده إلى أن أصبح أمينا لخازنه ، وفاق المماليك الآخرين فى ركوب الخيل ، وقذف الحراب ، ولعب الجريد ، وضرب السيف، واستعمال الأسلحة النارية ، وهو فى كل هذه الألعاب والفنون ، يمزح ويجد ، ويلعب ويدرس ، يستلفت الأنظار فى حركاته وسكناته ، فى قيامه وقعوده ، فى ذهابه وإيابه ، يمتاز بالخفة والنشاط ،

والبديهة الحاضرة ، والذكاء الخارق ، مثيرا للإعجاب ، بشجاعته وجرأته ، حتى لقب باسم « جن على » ولوصوله إلى هذا اللقب قصة فريدة سترد فى السطور التالية :

كان المملوك بعد تمام تربيته ونشأته ، يرقى السلم من أسفل درجاته ، فأول الأمر يعين فى جملة أولاد الخزنة ، الذى يوكل إلى شجاعتهم ومضاء سيوفهم ، حراسة الخزانة ، وكان كل سنجق يجعل فى قصره ديوانا خاصا ومصرفا يخزن فيه أمواله وأسلحته ، فإذا جد الجد ، وقضت الضرورة أن يغامر سيده فى إحدى المغامرات أو يشتبك فى معركة دبرها من لا يسعه خذلانه ، انضم هذا المملوك إلى جانب سيده ، وحارب فى صفه ، وأبدى من ضروب الشجاعة ، وفنون الكر والفر والنزال والصوال ما يستثير إعجاب سيده ويجعله جديرا بتقديره ورضاه ، حتى إذا انتصر ، كوفئ بالسماح له بإرخاء لحيته ، والتمتع بمنصب الخازندار ، ثم يعقب ذلك ترقيته أيضا إلى منصب كاشف ، وكاشف اليوم هو سنجق الغد ، وللسنجق أن يطمع فى مستقبله ، فى زعامة زملائه ، وعن طريق ذلك يصل إلى منصب شيخ البلد .

وقد ظهرت مواهب على بك العسكرية أول ما ظهرت ، أثناء رحلة سيده إبراهيم بك إلى الحجاز ، فقد كان فتى يافعا فى رفقة زعيمه ، الذى كان يشغل فى ذلك الحين منصب كتخدا الانكشارية ورئيس الجيش الذى يحمل المحمل . ففى أثناء سير الحملة برز لها جماعة من الأعراب المسلمين بقصد النهب . وكان جيش المماليك غير مستعد للنضال ، إذ هو ذاهب لغاية دينيه وليس لغاية حربية ، فلما فوجئ بالهجوم ، كادت

الدائرة تدور عليه ، لولا بسالة الفتى على ، الذى برز لهم وصمد على قتالهم حتى تغلب عليهم منفردا لوحده ، وقد أبدى فى هذه المعركة براعة وشجاعة وجرأة منقطعة النظير ، فى توجيه الهجوم وحسن الدفاع ، ومن ذلك التاريخ سمى « جن على » وسمى بالجن لنهوضه بما يعجز عنه البشر .

كيف وصل إلى الحكم

ظهر على بك على مسرح السياسة ، حين كانت تحكم مصر دولة زاهرة ، استقر فيها الحكم نحو ثمانية سنوات كان خلالها إبراهيم بك ورضوان بك صاحبى الأمر والسلطة ، قسما بينهما أمور الدولة عن تراض وتفاهم ، فذهب أولهما بتدبير شئون الإدارة والحرب ، وذهب الآخر بالقيام على الشئون المدنية والعمل على تآلف القلوب وتقوية دعائم الحزب وإظهار أبهة الملك مما أدى إلى الازدهار الذى يصحب عصور الاستقلال المستقر ، كما سبق أن أسلفنا .

وكان الفتى على فى عهد سيده إبراهيم بك ، يحارب فى جميع معارك سيده ومؤامراته ، وفى إحدى المعارك الكبيرة ، هاجم إبراهيم بك أعداءه قاصدا إهلاكهم ليصل على جثثهم إلى مشيخة البلد ، وكان ذراعه اليمنى فى هذه المعركة مملوكه الأمين على ، الذى تمكن بمفرده من قتل زعيمى الحزب المناهض وكثير من أنصارهم .

وكانت الحجة الرسمية المنتحلة لهذا الهجوم هى الاقتصاص من المماليك الذين سرقوا أموال الحج ولم يوصلوها كالمعتاد إلى مستحقيها من أهالى الحجاز ، وقد سعى سيده بعد هذه المعركة إلى ترقيته بعد عودته إلى

القاهرة ، كما عزم على ترقيته إلى رتبة « بك » رغم صغر سنه ولكن الدسائس التى كانت تحيطه منعت إتمام ذلك فى حياته وقد وافق الديوان على ترقية على إلى درجة كاشف سنة ١٧٤٩ وبدأ ذكره فى دفاتر الروزنامة بلقب « كاشف شرقية » ، ولما مات إبراهيم بك تقلد السنجقية باسم (على بك ميراللوا فازطاغلى) ، وكان يتقاضى علوفة كل شهرين مقدارها ٢٠ أردب حنطة ، ٤٠ أردب شعير .

وبحصوله على « السنجقية » أو حاكم الإقليم ، انتهى الدور الأول من حياته ، وبدأ دور الكفاح فى سبيل وصوله لمنصب شيخ البلد أو الحاكم الأعلى للبلاد .

وقد ذكر الجبرتى المؤرخ المصرى المعاصر ، عقب حصول على بك على البكوية بما يشير إلى اعتداد على بك بذاته وثقته الكبيرة بنفسه قال :

« واتفق أن بعض ولاة الأمور تشاوروا فى تقليده الإمارة ، فنقل إليه مجلسهم وذكر له مساعدة فلان ومعارضة فلان فقال « أنا لا أتقلد الإمارة إلا بسيفى لا بمعونة أحد » .

ومن ذلك الحين أخذ يعقد الآمال ، ويتقوى شيئا فشيئا ، استعدادا للجولة القادمة ، فاستكثر من شراء المماليك ، وتدريبهم على فنون القتال حتى أصبح له جيش مدرب منهم ، وأخذ فى مضاعفة ثروته وقضى ثمانية أعوام فى تقوية حزبه .

وقد ظهر على بك بمظهر يستخلب الألباب ، حين احتفل بتزويج هانم إبنة سيده إبراهيم بك إلى أحد مماليك أبيها ، فى حفلة عظيمة ، ومهرجان لم تر مصر له مثيلا ، وقد بذل فيه المال الكثير ، وعد من الأفراح الشهيرة فى

ذلك الحين ، بما زاد فى اعتباره وتقديره فى نظر أقرانه وفى نظر جماهير الشعب .

وقد لقب على بك الكبير بواسطة العامة لما أظهره من البذل فى هذا الفرح التاريخى وقد تمكن على بك من الوصول إلى مشيخة البلد سنة ١٧٦٣ بعد منازعات وحروب مع أقرانه ومنافسيه ، أدت إلى فزع العامة ، وثورة مشايخ الأزهر على خصومه حتى قال الشيخ الحفناوى ، أحد العلماء فى ذلك الوقت ، (كما رواها الجبرتى) مخاطبا المماليك :

« لقد خربتم البلاد — وكل ساعة خصام وحروب مع على بك »

ومع ذلك بقى النزاع بين على بك والسناجق حتى أجبروه على الفرار إلى بيت المقدس ولكنه عاد باستدعاء أنصاره وأعوانه وعلى رأسهم عبد الرحمن كتخدا ، صاحب المخلفات العظيمة التى شيدها والتى تعد أنموذجا للفن الهندسى السائد فى عهد على بك ، كما أنشأ عبد الرحمن كتخدا كثيرا من العمائر والمساجد ، كما أنه أضاف إضافات عظيمة للأزهر بإعادة بناء المدرستين الطيبرسية والأقبغاوية وضمهما إليه ، وكان أكبر الأمراء وأعظمهم نفوذا ومالا إن لم يكن أقواهم جنانا وأليقهم للحكم ، فانتفع على بك بسلطته ، فأصبح الأمير القوى الذى يلجأ إليه الجميع .

وكانت حوادث السنوات التى مضت منذ موت رضوان بك كافية لاقناع الأمراء الباقين أن الوقت قد حان لاستيلاء رجل قوى على أعنة الحكم والقبض على أمور الدولة التى اختلت وأعوزها الإصلاح والتقويم ، فكان من الطبيعى أن ينظروا إلى الرجل الذى بدأ نجمه صاعدا

كل هذه المدة .

وكانت أول خطوة فى سبيله إلى الحكم بعد أن اختاره عبد الرحمن كتخدا ، عندما صار أميرا للحج فى ١١٧٧ هجرية ، أى عندما أصبح أكبر قائد حربى معترفا به فى البلاد ، وقد أحاط على بك حجه فى ذلك العام ، بما اعتاد أن يحيط به نفسه ، من الإعلان والظهور بمظهر الفخامة والعظمة ، فلما عاد من حجه ، كان قد أصبح أكبر رجل فى البلاد فى نظر العامة والأمراء على حد سواء . وأخذ الناس يرددون أسماء أتباعه ورجاله مثل محمد بك أبو الذهب ، إسماعيل بك ، حسن بك الجداوى ، إبراهيم بك ، مراد بك ، ممن كانت لهم أدوار كبيرة على مسرح الأحداث فيما بعد .

سياسة الاستقلال

بعد أن انتهى على بك من توطيد سياسة الاستقرار ، وثبت دعائم ملكه ، تفرغ للاصلاحات الداخلية وعمل على استتباب الأمن بالبلاد ، فأنزل العقاب ببدو البحيرة ، الذين عاثوا فى الإقليم فسادا ، فنهبوا القرى وفرضوا الأتاوات على الفلاحين ، وسبوا النساء ، وعبثوا بأقدار الناس وكرامتهم ، وقد أنذر على بك أميرهم شيخ عرب الحبانية ، فلما لم يرتدع أمر أحد مماليكه الملقب بأحمد بك بالإيقاع بهم وطردهم حتى الواحات البحرية ، فقتل أميرهم وأعمل السيف فى عدد كبير منهم حتى سمى بعد ذلك بأحمد باشا الجزار والى عكا فيما بعد والذى عاصر الحوادث التاريخية الخاصة بمعاركه مع الفرنسيين حتى أيام حكم محمد على باشا .

ثم قضى بعد ذلك على الهوارى شيخ قبيلة الهوارة بالصعيد ، الذى جعل مقر زعامته فى فرشوط وكان له نفوذ كبير على مديريات الصعيد ، ولم يجرؤ حاكم قبل على بك لمصاولته ومكافحته ، ولكن على بك قتله مع أعوانه فى عدة معارك دامية ، وبذلك أمن الصعيد وسكانه شره وأذاه ، فاستتب بذلك الأمن فى البلاد من أسوان إلى الأسكندرية .

وأخذ يحكم البلاد بحكم المستبد العادل كما يقول الجبرتى[1] :

« لقد تتبع المفسدين ، والذين يتداخلون فى القضايا والدعاوى ،

---

(١) الجبرتى حزا ص ٣٨٤ ـــ ٣٨٥ .

ويتحايلون على إبطال الحقوق بأخذ الرشاوى والجعالات ، وعاقبهم بالضرب الشديد والإهانة والقتل والنفى إلى البلاد البعيدة ، ولم يراع فى ذلك أحدا ، سواء كان متعمما أو فقيها أو قاضيا أو كاتبا ، أو غير ذلك بمصر أو غيرها من البنادر والقرى ، وكذلك المفسدون وقطاع الطرق من العرب وأهل الحرف ، وألزم أرباب الإدراك والمقامات بحفظ نواحيهم وما فى حوزتهم وحدودهم ، وعاقب الكبار بجناية الصغار ، فأمنت السبل وانكفت أولاد الحرام ، وانكمشوا عن قبائحهم وإيذائهم ، بحيث إن الشخص كان يسافر بمفرده ليلا راكبا دابته أو ماشيا ، ومعه حمل الدراهم والدنانير إلى أى جهة ، ويبيت فى الغيط أو البرية آمنا مطمئنا لا يرى مكروها أبدا » .

وقال عنه الجبرتى أيضا : (يصف مظهره ومحضره)

« كان عظيم الهيبة ، حتى قيل إن بعض الناس ماتوا فرقا من هيبته ، صادق الفراسة ، متوقد الذكاء يفهم موضوع الدعوى بين الخصمين بغير حاجة إلى ترجمان ، بل كان يقرؤها بنفسه ، وما كان يبصم ورقة تعرض إليه إلا بعد قراءتها وفهم مدلولها . وكان يطالع كتب التاريخ وسير ملوك مصر الغابرين ، ويقول لخاصته إن ملوك مصر كانوا مثلنا من المماليك ، كالسلطان بيبرس ، والسلطان قلاوون ، وإن هؤلاء العثمانيين قد أخذوا مصر بالتغلب ، فيجب أن نسترد البلاد منهم بهذه الوسيلة ، وكان فى حديثه هذا يشى بسريرته ، ويرهص بما حققه بعد ذلك من الاستقلال التام لمصر وتحريرها من التبعيّة العثمانية » .

وكان شديد المراس ، عظيم الهمة ، قوى الشكيمة ، لا يرضى لنفسه

غير المكانة الأولى والمنزلة العظمى ، لا يميل إلى الهزل أو المجون ، يجالس أهل الوقار والحشمة مثل الشيخ حسن الجبرتى أبو عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ ، والشيخ على العدوى ، والشيخ أحمد الدمنهورى ، وكان له كاتب عربى وكاتب تركى (أى سكرتير) ومنجم .

وكان متحررا فى الخطاب أو الحديث ، وكثير من الناس الذين يقصدونه فى مشاكلهم وقضاياهم كانت تأخذهم الرعدة فى محضره ، حتى لا يستطيعون الحديث عن أقضيتهم ، فيلاطفهم ويؤانسهم ويأخذ بأسباب أحاديث المودة والمؤانسة ، حتى يهدئ من روعهم ، ويحول خوفهم إلى أمن ، وفزعهم إلى طمأنينة ، حتى إذا ما سكنت نفوسهم ، أمكنهم أن يتحدثوا إليه ، وفى أثناء ذلك يلاطفهم ويشجعهم قائلا : « هون عليك » ، متواضعا ، متصاغرا ، حتى يقدم الزائر من عنده مطمئنا إلى أن شكواه ستؤتى ثمارها ، وموضوعه سينال من الرعاية والعناية والعدالة ، ما هى جديرة به . هكذا ترطبت الألسنة من الثناء عليه ، والثقة فى عدالته .

كتب الرحالة « Volney » :

« إنه بمجرد أن اجتمعت أسباب السلطة بأكملها فى يدى على بلك عزم على استخدامها لزيادة نفوده وسلطانه ، فإن الجماعة ما كانت تقنع بلقب الحاكم أو القائم مقام ، لأن سيادة الآستانة كانت تجرح كبرياءه ، فهو لا يريد إلا الاستقلال لمصر ولقب سلطانها ، وعلى ذلك فقد اتجهت

---

(١) Volney : Voyages en Egypte pendant les années 1783 – 1785

كافة أعماله نحو تحقيق هذا الهدف » وامتنع عن دفع الجزية وطرد الوالى وصك العملة باسمه وأعلن الاستقلال .

كيف تم الاستقلال :

كنا إلى عهد قريب ، نقرأ فى كتبنا أن محمد على باشا هو أول من استقل بحكم مصر ، وأول من نزع عنها رداء التبعية للدولة العثمانية ، وحقق لها كيانا مستقلا عن دولة الخلافة ، وكان الملق لأسرة محمد على هو السبب فى هذا الخطأ ، بل وإنكارنا كل فضل لمن قبله من الحكام . وتناسينا فضل المحسن من الحكام السابقين ، وبالغنا فى ذكر مساوئهم ومفاسدهم كأنهم أساءوا لمصر بأكثر مما أساء غيرهم . لقد زيف تاريخ مصر واعتبر لمحمد على الفضل فى الاستقلال ، بينما لم يكن استقلاله كاملا ، لأن مصر ظلت تدفع الجزية المقررة عليها للآستانة حتى سنة ١٩١٤ حينما فرضت إنجلترا الحماية على مصر أثناء الحرب العالمية الأولى وقطعت آخر صلة تربط مصر بالآستانة ، فى حين أن على بك أعلن استقلال مصر جهارا وامتنع عن دفع الجزية ، ومنع الدعوة للسلطان فى المساجد ، وطرد الوالى ، وصك العملة باسمه ، ولولا خيانة مملوكه وقائد جيوشه محمد بك أبو الذهب ودسائس الدولة التركية لما فقدت مصر استقلالها هذا ، ورب قائل يقول : (إن على بك لم يكن مصريا كغيره من المماليك ، ولكن الجواب على ذلك : أن المماليك كانوا يرون أنفسهم أنهم مصريون ، وكان المصريون يرونهم كذلك ، ويسمونهم الأمراء المصرالية ، ونحن مع ذلك نستطيع أن نقول أن على بك كان أقرب إلى مصر وأهلها من محمد على الذى نعرف وطنه وكيف قدم إلى مصر

واستقر فيها ، وتولى حكمها بأمر الشعب المصرى الذى رشحه وزكاه ، ولما استقر فى الحكم ، قلب للشعب ظهر المجن ، وظل يحكمه حكما دكتاتوريا بشعا زهاء سبعة وثلاثين عاما عقب مذبحة المماليك الشهيرة سنة ١٨١٠ ، حيث ران على الشعب بعد أحداث هذه المذبحة الرهيبة ، شعور الخوف والاستسلام ولم يجرؤ إنسان مصرى على معارضته حتى موته .

الفرصة الذهبية لإعلان الاستقلال :

كانت الدولة العثمانية فى ذلك الوقت قد ثقلت عليها يد روسيا ، فى حين كانت النمسا تخز جنبها وتدمى جوارحها ، فلم يكن لها مع ذلك فضلة من قوة ، ولا بقية من تفرغ لتنظر إلى أحوال مصر ، وترقب سير الحوادث فيها ، فكان هذا الانشغال ممهدا لدولة من أكبر الدول الحديثة التى قامت بمصر على سيف هذا الحاكم القادر ، فما لبث أن تحين فرصة اشتباك تركيا فى حرب مع روسيا ، حتى جاهر بخلع يده عن طاعة الدولة. وأعلن استقلال مصر ، وامتنع عن دفع الخراج سنة ١٧٦٩ م . (١١٨٣) هـ وعزل الوالى التركى ، ومنع ورود الولاة العثمانيين ، وضرب النقود باسمه منذ تاريخ إعلانه الاستقلال ودانت له مصر ، أقصاها وأدناها .

ولما كانت هذه الخطوة الجريئة من على بك ، ستعرضه لمؤامرات كثير من الخصوم الذين يتسترون بالولاء لدولة الخلافة ، وينتهزون الفرصة للإيقاع به ، فقد أشاع على الملأ أنه اكتشف مؤامرة دبرها السلطان ضده للقضاء عليه بعد ما سمع عن استفحال نفوذه ، وذلك بأنه اكتشف رسالة

فى يد رسول من السلطان إلى محمد باشا الأورفلى الوالى على مصر ، يأمره فيها بأن يدبر مؤامرة سريعة يتخلص فيها من على بلك بقتله ، قبل أن يستفحل خطره . وقد أمده هذا الدليل على غدر السلطان ،بالأسباب المقنعة على الخروج عليه ، فجمع مماليكه وقادة جيشه ، وكشف لهم مؤامرة مولاهم السلطان ، وأمره بقتله وقتل خلصائه ، وهكذا جمعت مؤامرة السلطان قلوب المماليك حول شيخ البلد ، فجردوا سيوفهم وأقسموا على الوفاء له ، ثم أسرع بتنفيذ خطته ، فطرد الوالى العثمانى من مصر .

الحنين للأهل

حين اختطف على بك من أرض موطنه بالقوقاز ، وألقت به المقادير ليعيش على ضفاف النيل حياته الجديدة والمختلفة جدا عما نشأ عليه بين أحضان أسرته الأصلية ، كان عمره يناهز الخامسة عشرة سنة ، وهى سن يدرك فيها الإنسان وطنه وبيئته وعادات وتقاليد أسرته تمام الإدراك .

ورغم التحولات الجذرية فى نظام معيشته وثقافته وتربيته وتنشئته نشأة دينية مختلفة كل الاختلاف عن نشأته الدينية السابقة ، فقد ظل فى وجدانه الحنين إلى أفراد أسرته والتوق إلى لقائهم أو معرفة أخبارهم ، ولكن الظروف لم تتح له . وظل يرقى فى سلم المراتب المملوكية حتى وصل إلى منصب كاشف شرقية أى الحاكم لإقليم الشرقية ، وربما حاول حين وصل إلى هذا المنصب أن يتصل بعائلته الأولى ، ولكنه آثر الانتظار حتى ينتصر فى معاركه العتيدة ، ويقوى على مناجزة منافسيه لمنصب مشيخة البلد بعد وفاة سيده وأستاذه إبراهيم بك .

ولما وصل إلى منصب شيخ البلد ، وأصبح الحاكم الأعلى للبلاد دون منازع أو منافس ، ودانت له البلاد من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، وجد الفرصة متاحة لكى يبعث برسالة[1] لمعرفة أخبار عائلته ، واستدعائها للعيش بجواره ، فى وطنه الجديد الذى استقر فيه ، ووصل فيه

---

(١) كتاب ثورة على بك الكبير لأنور زقلمة ص ٥٤

إلى المنصب الأعلى ، الذى ترنو إليه الأبصار ، ويحيط به الأنصار .

وقد روى الرحالة Savary[١] فى خطاباته الموجهة إلى شقيق ملك فرنسا قبل الثورة الفرنسية فى عام ١٧٧٩ قصة رواها عن مراد بك آخر حكام المماليك سنة ١٧٧٦ ، كما وردت فى كتاب Stavro Lusignan ، الذى عنوانه :

A history of the revolt of Aly Bey against the Ottoman. London 1784

والمؤكد أن هذه القصة قد وقعت لعلى بك ، ولأمر ما فاتت على الجبرتى فلم يذكرها عن مراد بك مع أنه عاشره ، وقد ذكرها ستافرو لوزينيان لأنه كان معاصرا لعلى بك وقد رأى حوادثها بعينى رأسه ، لهذا فهو أصدق تاريخيا بالنسبة لعلى بك ، وهذه القصة تستحق التدوين لا لغرابتها بل لتعطى فكرة عن أحداث ذلك العصر ، والقصة كما يلى :

فى عام ١٧٦٦ بعث على بك أحد مماليكه طنطاوى بك إلى الآستانة مع الخزنة — أى الجزية التى كانت تدفعها مصر لتركيا سنويا ، وأمره أن يرسل حين وصوله الآستانة رجلا موثوقا به من رجاله إلى آماسيا فى الأناضول ، ليبحث عما إذا كان أبوه وأمه لا يزالان على قيد الحياة ، حتى إذا وجدهما كذلك يدعوهما إلى السفر معه إلى الآستانة ، ومنها ليسافرا إلى مصر مع طنطاوى بك عند أوبته .

وقد قام المملوك بتنفيذ ما أراده مولاه ، وأوفد خازنداره إلى بلده آماسيا فوجد القس داود والد على بك مازال حيا . فأفضى إليه الرسول

---

(١) Lettres sur l'Egypte par M.Savary Paris 1785

بمهمته ، فسر الشيخ سرورا عظيما ، وتهللت أساريره ، لعثوره على ولده المفقود ، ولأنه ما زال حيا يرزق وسرعان ما سوى أموره وشئوونه المنزلية ، وسافر مع الخازندار ومعه أصغر بناته وزوجه وحفيد له ، تاركا أكبر بناته مع زوجها . وكان داود قسيسا من طائفة الروم الأرثوذكس وذكر أن إبنه ولد عام ١٧٢٨ وسمى يوسف ، وأنه خطف لما كان عمره خمسة عشر عاما .

* * *

وحالما وصل الأب داود إلى الآستانة ، كان طنطاوى بك قد فرغ من مهمته هناك ، فاستصحب الأب مع ابنته وحفيده فى رحلة بحرية إلى مصر استغرقت أربعين يوما ، ووصلت البشائر إلى على بك بمقدم والده ، فخرج من المدينة مع حاشية من كبار مماليكه لمقابلته ، وحين رآه جثا على ركبتيه وقبل يديه .

ووصف الكاتب الفرح الذى استولى على الوالد وولده ، ثم قال : بعد ذلك أم الجميع سراى على بك بالأزبكية[١] .

وتولى الخدم والأتباع غسل أقدام الوالد (كحسب عادة أهل ذلك زمان) ثم دخلوا به الحريم ، فقدم لهم زوجته اليونانية مريم ، وأقيمت لأفراح فى المدينة ، وتلقى على بك التهانئ من البكوات وأعيان

(١) كانت تقع فى درب عبد الحق المطل على بحيرة الأزبكية ، وهى تقع فى الطرف غربى من العمارة التى تحتلها عمارة بنك مصر (كازينو بديعة ثم سينما أوبرا) ولا يزال سم الشارع المجاور « حارة عبد الحق السنباطى » .

البلاد والأهالى .

وأقام القس داود فى القاهرة سبعة شهور ، ثم عاد إلى آسيا مع أفراد عائلته ، رافضا العروض التى عرضها عليه ابنه للبقاء فى مصر ، وممتنعا عن تزويج ابنته (يوهود) إلى مملوكه (محمد بك أبو الذهب) ولعل غدر هذا المملوك (فيما بعد) بسيده على بك يرجع إلى هذا السبب .

الحالة الاقتصادية فى عهده

الزراعة :

لم ينتصف القرن الثامن عشر حتى أصبح الشعب المصرى غالبا فى ثوب مغلوب ، من ذلك أنه استرد أراضيه المغتصبة بطريقة غير مباشرة ، ذلك أن السلطان سليم حينما احتل البلاد ، كان قد اعتبر نفسه مالكا لكل الأراضى الزراعية ، وكانت الأراضى مقسمة إلى إقطاعيات ، موزعة على السناجق الـ ٢٤ الذين يتولون حكم الأقاليم المصرية ، وهؤلاء يستغلونها لحسابهم على شرط أن يدفعوا للخزانة العامة ضريبة ، يذهب جزء منها إلى الآستانة فى صورة غلال وأموال ، ويذهب الجزء الآخر للحامية التركية والوالى .

ولما كان السناجق ووكلاؤهم الكشاف يعرفون كيف تستغل تلك الأراضى ، ومن ثم كانوا يؤجرونها للملتزمين وهم متعهدو الأراضى يتولونها ويستولون على محصولها لقاء مبلغ من المال والغلال يسلمونه للكشاف . وبهذه الطريقة آلت الأراضى الزراعية كلها إلى الملتزمين المصريين ، الذين استفادوا من تعاقب السناجق على الإقطاعيات والإكثار من إبدال الكشاف بغيرهم ، وبذلك حصلوا على معظم ريع الأرض وطابت نفوسهم للسناجق بالقليل ، وبذلك وفروا ثروة الفلاح

للفلاح[١] .

وقد اهتم على بك بإنعاش الزراعة ، واستقدم بعض الخبراء الزراعيين[٢] الأجانب ، واستقر الأمن فى القرى واطمأن الناس لعدالته الصارمة ، وعندما حاول أعداؤه الوقيعة به عام ١٧٦٨ كشف مكيدتهم ونكل بهم .

الصناعة والتجارة :

أما فى المدن فقد استأثر أفراد الشعب بجملة الفنون والصناعات وأدوات الحرب ، كما احتكر تجار القاهرة والثغور كافة الشئون المالية تدريجيا ، وجعلوا من القاهرة مركزا تجاريا كبيرا ذا سمعة ، وقد اعترف السلطان بأهميتهم فأدمجهم فى عضوية المجلس ، وقد اجتهد أعيان القاهرة وتجارها فى الانخراط فى سلك ضباط الوجاقات أى رجال الحكم ، فاشتروا مراكز الرئاسة ، وصاروا ضباطا عظاما فى الحامية التى كانت تركية فتمصرت ، وأصبحت من العوامل الفعالة فى إضعاف السيادة التركية . وقد اختار على بك أحد كبار التجار الأجانب ويدعى (Carlo Rossetti) كارلو روستى ليكون مشرفا على تنظيم التجارة

---

(١) احتفظ الفلاح فى العهد المملوكى بالكثير من مظاهر السيادة القومية ، فمن بين الفلاحين برز علماء الأزهر ، وتجند منهم الكثير الذى تألفت منهم الكتلة الكبرى من الحامية التركية وجيوش السناجق الصغيرة ، ونشأت من بينهم عصبيات كبيرة فى الأقاليم حسب لها الحكام ألف حساب .

(٢) الرحالة سافارى : Lettres sur l'Egypte Par M. Savary Paris 1785.

الخارجية والمخابرات الدولية ، وأرسله عام ١٧٧٠ إلى جمهورية البندقية لعقد معاهدة تجارية معها . وكان مديرا لمشروعات استغلال وادى النطرون . كما عقد معاهدة تجارية مع إنجلترا .

الأمن العام والعدالة :

ذكرنا فيما سبق ، أنه اهتم بالقضاء على قطاع الطرق وعصابات النهب ، وفرض النفوذ على بعض الأقاليم النائية عن القاهرة ، وعلى رأس هذه العصابات عصابة سويلم بن حبيب فى الوجه البحرى وشيخ العرب همام زعيم الهوارة فى الوجه القبلى ، وهذه الأمور فضلا على أنها تعنى الاستقرار وسيطرة الدولة على جميع نواحى البلاد ، فهى تؤدى إلى إنعاش التجارة الداخلية ، وأمن الفلاح فى نقل المحصولات الزراعية من الريف إلى المدن ، كذلك عاقب القضاة الذين لا يرعون دقة فى أحكامهم ، بالضرب والنفى والقتل ، وكذلك المفسدين والسراق ، وقد علم أن شيخا يدعى الشيخ أحمد الكتبى المعروف بالسقط ، كان يتداخل فى القضايا بما يتنافى والعدالة ، ويقتسم الرشاوى مع القضاة ، وله جسارة عظيمة فى ذلك ، فما كان منه إلا أن قبض عليه وضربه ضربا شديدا ، ونفاه إلى جزيرة قبرص ، ولم يعد إلى مصر بعد ذلك ، بل انتقل إلى اسطنبول ومات بها .

الشئون المالية :

انتظمت مرافق الدولة فى عهده ، وبصفة خاصة الشئون المالية ، فعين عليها المعلم رزق مدير الجمرك القديم ، واعتبره وزير ماليته ، لثقته الكبيرة

فى نزاهته ، كما وكان هذا الموظف الكبير من المقربين إلى على بك ، وكان دائم الاجتماع به واستشارته فى شتى الأمور ، وقد نظم التجارة الخارجية والمواصلات .

نشاطه الدبلوماسى :

عقد محالفة دفاعية مع روسيا ، وبعث إلى قيصرة روسيا كاترين الثانية برسالة مع سفير خاص « ذو الفقار بك » لتعزيز أواصر الصداقة بين البلدين ، وأرسل الكونت أرلوف قائد الأسطول الروسى فى البحر الأبيض المتوسط خطابات الصداقة إلى على بك ، مع ضابطين روسيين لتدريب الجيش المصرى وثلاث مدافع حصار ، وكان على بك يقصد من ذلك تدعيم مركزه ضد تركيا بواسطة محالفة ألد أعدائها وهى روسيا ، وللاستنجاد بها لمعاونته فى الظروف الصعبة .

وقد شجعته روسيا فى هذه السياسة ، وشدت أزره فى الحروب التى شنها على بك ، لتوسيع سلطانه ، وتعزيز استقلاله ، وهو ما سنشرحه فى الباب التالى :

حروب على بك الكبير

حملته إلى البلاد العربية :

كان فتح سوريا شغله الشاغل ، ولكنه أجل موضوع فتحها ، لأنه وجد أن فتح بلاد العرب أسهل منالا وأقرب تحقيقا ، نظرا لأنه كان يطمح إلى توسيع موارده المالية بالاستيلاء على سواحل البحر الأحمر ، لأهميتها التجارية ، ولأنها طريق التجارة الدولية بين الغرب والشرق ، لأنه كما هو معلوم ، أن القوافل التجارية بين أوربا وآسيا كانت تنتقل عن طريق رأس الرجاء الصالح ، فأراد على بك أن يجعل جدة مقر تجارة الهند ، فتتحول بهذا العمل التجارة الشرقية إلى الطريق البرى القديم عبر مصر (والبحر الأحمر) . فتدعم بهذه المصادر المالية الجديدة مركزه الاقتصادى ، وكان فى ذلك متأثرا بآراء التاجر البندقى كارلو روستى[١] .

وكان من المؤكد أنه يقصد من هذه الحملة الاستيلاء على الحرمين الشريفين ، ليستغنى بنفوذها عن نفوذ الخليفة العثمانى . وقد عنى على بك لتأييد قوته الحربية ، بجمع الأعوان حوله ، فرفع فى أثناء حكمه وفى بدايته ١٦ ستة عشر من كبار مماليكه إلى رتبة البكوية ، كما رفع أحدهم إلى مركز أغا الإنكشارية ، وزاد عدد مماليكه عن ٦٠٠٠ ستة آلاف مملوك ، ضم إليهم عدد كبير من المتطوعين المصريين بلغ عشرة آلاف متطوع ،

---

(١) Bruce Vol. 1 P. 105

وكان بهذا أول حاكم جند المصريين فى خدمة الجيش بعد اعتزالهم عن ذلك آلاف السنين ، وعنى بتدريب مماليك بيته ، وأغدق النعم على المتفوقين منهم حتى اشتد بأس جماعته، وقد شاهد فولنى[١] الرحالة الفرنسى فى رحلته إلى الشام جيوش على بك ، وهى ذاهبة لفتح سوريا فقال : إن الجيش المشار إليه كان مكونا من ٤٠ ألف مقاتل منهم خمسة آلاف من الفرسان ، وقد وصف ملابس المماليك فقال : إنها على أحسن طراز يرتديه مجند فى ذلك العهد ، وشرح أقسام الجيش والأسلحة المستخدمة والعتاد بالتفصيل ، مما يدل على مقدرته المالية ومحبته لجيشه واعتماده عليه، وعلمه أنه أساس كل إصلاح وهو الضامن للاستقلال.

استعدت التجريدة التى جهزت لفتح بلاد العرب وقسمت إلى قسمين : القسم الأكبر بقيادة محمد بك أبو الذهب ومهمته فتح شبه الجزيرة العربية من الداخل ، والقسم الثانى مكون من أسطول كبير وجيش ، حددت مهمته فى الاستيلاء على السواحل والموانئ بقيادة حسن بك الجداوى ، وانتصرت هذه الحملة ، وأخضعت شبه الجزيرة العربية للحكم المصرى ، ورجع القائدان المنتصران إلى مصر فى أكتوبر سنة ١٧٧٠ بعد أن تم فتح الحجاز واليمن ، ودعى لعلى بك على منابر الكعبة دون الخليفة التركى ولقب « سلطان مصر وخاقان البحرين والبرين »[٢] .

---

(١) Volney Voyages en Egypte pendant les années 1783 – 84 Paris . Vol . 1 p. 98

(٢) Savary P. 231.

الحملة على الشام :

إن من يريد الاستقلال ، لا بد أن يضع يده على الشام ، لأن حدود مصر الغربية مأمونة فى الصحراء ، أما حدودها الشرقية فمفتوحة ، ولا بد أن تكون حدود مصر الشرقية جبال طورس .

خرج الجيش بقيادة محمد بك أبو الذهب للزحف على الشام فى ديسمبر سنة ١٧٧٠ ، بدأ على بك حملته بإصدار منشور إلى أهالى الشام يبشرهم بالحرية والقضاء على طغيان الترك ، واستولى الجيش دون متاعب على بلاد الشام ، وأخذت تسقط البلاد واحدة إثر الأخرى ، ودخل الجيش الغازى مدينة غزة فى مارس ١٧٧١ ، وبعدها الرملة وفتحت مدينة نابلس أبوابها دون مقاومة ، وسلمت له مدينة بيت المقدس ، ثم استولى على يافا والتقى الجيش بجيش حليفه الظاهر عمر واتجهت جيوشهما المتحالفة إلى دمشق فى إبريل سنة ١٧٧١ فاتحين صيدا .

كانت الجيوش التركية المنتشرة فى كل بلاد فلسطين قد تجمعت بقيادة عثمان باشا والى دمشق حول أسوار المدينة لإعداد آخر دفاع عن سوريا ، فلما دهمهم محمد أبو الذهب بجيشه الكبير وضرب الحصار حول دمشق ، لم يستطع الجيش العثمانى الصمود أمام تلك القوة العاتية ، واضطر إلى التسليم فى نهاية نوفمبر سنة ١٧٧١ ، وانسحبت الحامية إلى القلعة ، فتقدم الجيش المصرى نحو القلعة ، وما لبث أن استولى عليها . وبذلك تم الاستيلاء على بلاد الشام ، وأصبح الطريق مفتوحا إلى جبال طورس ، ودانت سوريا كلها لحكم على بك وشعرت تركيا بالخطر الداهم الذى يتهددها ، فحاولت إثارة الفتنة بين قواد الجيش الفاتح

وبصفة خاصة القائد المنتصر محمد بك أبو الذهب . وقد ذكر الأستاذ محمد كرد على فى كتابه حروب الشام الجزء ٢ ص ٣٠٤ :

« إن عثمان باشا السركى بعث إلى أبى الذهب بصرة ثقيلة من الدنانير ، للرجوع عن محاربته ، فارتشى منه وأمر العسكر برفع الحصار عن دمشق » .

والواقع أن أبا الذهب كان ينقم على سيده النعم التى ينعم بها ، فكان يحسده على الملك الذى ناله هو بحد حسامه — كما أن بعض تصرفات على بك كانت تثير حفيظة نفسه مثل تقديمه المعلم رزق الذى كان يشغل منصب المستشار المالى لعلى بك ، والذى كان فى نفس الوقت جليسه وأمينه وموضع سره .

كما أن أبا الذهب كان يحقد أيضا على على بك لعدم اقترانه من أخته التى رفض والدها تركها فى مصر ، هذا علاوة على ما أوحاه الأتراك إلى أبى الذهب لعدم جواز محاربة الخليفة أمير المؤمنين ، وانتهاك حرمة الحرمين ، وتحالف على بك مع الكفار الأجانب .

* * *

وبسبب خيانة محمد بك أبى الذهب فقد على بك ثمار المجهودات التى بذلها . ولكن الأمل لا يزال يعاوده باستعادة تلك الإمبراطورية ، فاستمر يرسل الإمدادات إلى حليفه الشيخ ظاهر حاكم عكا ليستمر فى المقاومة والمحافظة على ما فتحته الجيوش ، أما هو شخصيا فقد سار توا إلى غزة مع مماليكه الخواص ، وأوقع بالأتراك فى موقعة حاسمة بجوار بلدة صغير فى يوليو سنة ١٩٧٢ ، واستولى على كل فلسطين ، ولما وصلت أنباء

انتصاراته إلى مصر كللها المصريون بالفرح والابتهاج ، فكتب له العلماء ورؤساء فرق الجيش يطلبون عودته ، وما كادت تصله الدعوة حتى جمع مماليكه وقدم إلى مصر دون اهتمام بالعواقب .

وأثناء عودته تقابل مع أبى الذهب عند الصالحية ، واشتبكت جيوشه مع جيش أبى الذهب ، وانتصر فى مبدأ الأمر ، ولكن لكثرة جيوش أبى الذهب (١٢ ألف مقاتل) تغلبت على فلول جيش على بك التى لم تزد عن خمسة آلاف مقاتل ، وعبثا حاولت حاشية على بك إقناعه بالهرب والنجاة بنفسه ، فرفض الانسحاب ، وظل يقاتل حتى أصيب بجرح فى رأسه وسقط عن جواده ، فأسر وحمل إلى مخيم محمد بك أبى الذهب الذى خرج وتلقاه بغاية التأثر والاحتفاء ، وقبل يده واحتضنه ، وحمله من إبطه حتى أجلسه بصيوانه ، بكل إحترام وإجلال ، وبكى من فرط تأثره بسقوط سيده وأستاذه السابق ، ثم نقل على بك إلى القاهرة ، ومات بعد أيام من إصابته فى ٨ مايو سنة ١٧٧٣ .

وبوفاة على بك أسدل الستار على المحاولة الأولى للتخلص من سيادة العثمانيين والتى نجح فى إتمامها محمد على باشا . وطوى الزمان صفحة جليلة من كتابه فيها ذكرى عطرة .

نهاية أبى الذهب :

لم يستفد هذا المجرم من نتائج عمله ، فإنه لم تكد تركيا تعترف به شيخا للبلد ، حتى خرج لمحاربة الظاهر عمر واستخلاص البلاد التى تحت يده ، حتى أصيب بالحمى ومات فى ١٧٧٥/٦/٨ ، فى الوقت الذى وافقت تركيا على إعطائه الباشوية لولاية مصر ، فلم ينل الرتبة ، ولم يتمتع بولاية مصر ، ومات مغضوبا عليه ومذكورا بالسوء مدى الدهر .



نفيسة المرادية

جارية شركسية ، ارتفعت فى مجتمعها أعلى مكانة

وقفت أمام القصر الشامخ تملأ منه العينين ، وقد أخذتها روعته ، وانتشت بعبير ورود حدائقه ، وما حوت من أزاهير متعددة الألوان ، وندت عن شفتيها صرخة خفيفة ، وتخيلت دوحه الباسق ، ونخلاته العالية ، كأنها مردة تحيط بأحد القلاع فى إحدى حكايات عجائز قريتها .

وعندما بدأت ـــ مع مثيلاتها من الرقيق المستجلب من بلاد التتار والكرج وبلاد الأناضول وغيرها ـــ تخطو خطواتها الأولى داخل القصر ، نسيت تصوراتها وأحلامها الأولى ، وبدأت تحيا فى حلم من ضباب شفاف كساها غلالة من غموض ، نسيت معها مشاق الرحلة الطويلة ، من أرض نشأتها إلى مصر وما لابس هذه الرحلة من ظروف ومفاجآت ، وهى جارية لا حول لها ولا طول ، تنتقل من يد تاجر إلى آخر ، حتى رسا بها المطاف ، فى سوق الجوارى الشركس بالموسكى حيث اشتراها رجال على بك سنجق الشرقية .

وأيقنت أنها تدخل الجنة ذات السرر المرفوعة ، والنمارق المصفوفة ، والزرابى المبثوثة ، ولكنها عندما سمعت صوتا رقيقا يفتح باب مقصورتها الخاصة ، دارت بها الأرض من الرهبة ، وراحت فى إغماءة طويلة .

وبدأت الجارية الشركسية الشابة تحس بواقع وجودها شيئا فشيئا . وقد سمعت أصواتا تهمس وتتهامس . ورأت حركة وحياة ، وسمعت صوتا يناديها باسم جديد غير اسمها الأصلى ، يناديها باسم « نفيسة » ، فبهتت ولم تجب . وسرعان ما همست « القهرمانة » فى أذنها بأنها هى نفيسة ... وإن هذا هو اسمها المختار ، لأنها نفيسة فى الحسن ... والفتنة ... والدلال ... لقد ابتسم لها القدر ، فحملها على أجنحة الورد من جبال وتلال بلاد الكرج إلى قصر « على بك بلوط قبان » الذى عرف فيما بعد باسم على بك الكبير ... لتكون ضمن جواريه العديدات ... ومرت الأيام ... وأحست المشرفة على شئون القصر براحة وإعجاب فائقين نحو نفيسة ، فقربتها وقررت بينها وبين نفسها أن تدخل فى مغامرة شخصية من أجلها ، وهى واثقة من أن النجاح سوف يكللها ، لما للجارية الشابة ، من إمتيازات وصفات ، تعلو بها على قريناتها من الجوارى ... ومن هذه الصفات : الذكاء اللامع والعقل الثاقب ، وبعد النظر ، وحسن التصرف فى الأمور ...

فدبرت المشرفة على شئون القصر وجواريه لقاءاً عابرا يبدو وكأنه من عمل المصادفة البحتة ، فتجعل نفيسة تقف فى طريق سيدها فيراها ، فتروق فى عينيه ، وتصبح جاريته الأثيرة عنده ، وتم كل شيء ، بعد إعداد محكم من « القهرمانة » ووقف على بك ذات صباح ضاحك أمام جارية وضاءة الملامح ، ساحرة العينين ، وافرة الحسن ، فأخذ بها ... ووقعت فى نفسه موقعا حسنا ... وهكذا انتقلت نفيسة من حال إلى حال ... وأصبحت الأثيرة عند سيدها ، إذ وجد فيها ميلا للوحدة ، وكراهية لحياة

الجوارى فى القصور ، وما تميزت به هذه الحياة من وشايات ... ودسائس ومؤامرات ثم ... ثرثرة نساء فارغات القلب والعقل ... كانت شغوفة بالمعرفة ، تواقة إلى العلم ... علم الدنيا وعلم الدين ولما اكتشف على بك هذا التطلع من جاريته أجزل لها المعونة ، وأحضر لها المعلمين والفقهاء ، وأجادت بفضل معلميها اللغة العربية واللغة التركية ، وطالعت العديد من المؤلفات مما وسع آفاق تفكيرها ، وكانت نفيسة كلما سمعت أنباء أهل العلم ، وكيف تتسع لهم شتى مجالات الصدارة ويؤخذ برأيهم فى كل دقائق الأمور — زادت رغبتها فى المعرفة ، لا لتكون فى مكان من تعظ ، أو توجه أو تفتى ... ولكن فى مجال يرق بها فوق مرتبة الجارية ، وتحقق لها ما أرادت ... فارتفعت فى عينى سيدها ، وأعتقها وأصبحت زوجته المفضلة عن بقية زوجاته وهن :

١ — السيدة[1] عائشة قادن بنت عبد الله البيضاء ، معتوقة سيده إبراهيم بك الحاكم السابق للبلاد .

٢ — السيدة كلسن خاتون .. وقد توفيت هذه الزوجة فى حياته .

٣ — السيدة منور خاتون .

٤ — أما أحبهن إلى نفسه ، وآثرهن إلى فؤاده ، فكانت السيدة نفيسة خاتون[2] التى حررها وتزوجها ، واهتم بتعليمها حتى أصبحت سيدة مصر الأولى فى عهدها . ولم تتمتع امرأة فى مصر فى ذلك العهد بما تمتعت

---

(١) كان من عادات الحكم المملوكى ، أن الحاكم مجرد أن يصل إلى منصب الحكم يتزوج امرأة الحاكم السابق ، أو زوجة سيده ، تكريما له ولذكراه .

(٢) خاتون لقب تركى ، يطلق على السيدة ذات المكانة الرفيعة والأصل المجيد .

به السيدة نفيسة من ثقافة بزّت بها جميع نساء الوطن ، وشخصية ممتازة ، فرضت احترامها وتقديرها على حكام البلاد وأعيانها الذين تلوا عهد على بك الكبير فى السلطة بعد وفاته .

وقد أوقف على بك الأوقاف على زوجاته ، بما يكفيهن للعيش فى حياة رغدة ولكنه ميز عنهن السيدة نفيسة ، بما أوقف عليها من أملاك وأعيان أكثر ، تدر عليها ثروة طائلة ، وذلك فى وقفتيه التى سجلها فى ١٠ شعبان سنة ١١٨٣ هـ[١] .

وليس لدينا من المراجع الدقيقة ، ما نستطيع به تحديد تاريخ زواجه الرسمى بها ، ولا عمرها حين الزواج ، ولكن المرجح أنه تزوجها قبل أن يصل إلى منصب شيخ البلد ، وقد عاشت بعد وفاته عام ١٧٧٣ م ثلاثة وأربعين عاما ، وعاشت بعد زواجها من مراد بك (الذى أطلق عليها اسمه وأصبحت تعرف بالسيدة نفيسة المرادية) حتى وفاته سنة ١٨٠١ م ثمانية عشر عاما ، وانتقلت إلى الرفيق الأعلى عام ١٨١٦ فى شهر أبريل ، أى بعد وفاة زوجها الثانى بخمسة عشر عاما .

---

(١) يطلع على حجتى وقف على بك فى ١٠ شعبان ١١٨٣ هـ الفقرة ١٢٨٥

حى الأزبكية[1]

بنى على بك قصرا عظيما على بركه الأزبكية ، وهذا القصر أحد القصور التى لعبت دورا هاما فى تاريخ البلاد ، كما بنى بعد ذلك محمد الألفى بك قصرا عظيما على البركة ، ولما تم البناء وتم الاستواء وعزم الألفى بك على الإقامة بالقصر ، دهمت الجيوش الفرنسية البلاد ، وحالما دخل نابليون القاهرة ، احتل هذا القصر وأقام فيه ، ثم أقام من بعده من القادة الذين تولوا زمام الحكم من الفرنسيين ، لذلك كان من المناسب الإلمام بتاريخ هذا الحى ، حيث إن القاهرة فى العصر التركى ، شهدت نشوء أحياء جديدة ، بدأت تدب فيها الحياة ، وانتقل إليها مركز الثقل من الأحياء القديمة كحى القلعة وحى بولاق مثلا ، ومن أهم هذه الأحياء الجديدة حى الأزبكية .

خلدت الأزبكية ، اسم منشئها ، الأمير التركى أزبك ، الذى كان قائدا للجيش فى عهد السلطان قايتباى (٨٧٢ هـ ـــ ٩٠١ هـ) . وقد قام هذا الأمير بتجميل منطقة الأزبكية ، وذلك بإزالة التلال والأتربة التى كانت تغطيها ، وغرس فيها الأشجار الباسقة ، وأعاد حفر بركتها ، ومدها بالمياه من الخليج الناصرى ، وبدأ فى إقامة المنشآت والحدائق حولها ، ولهذا ارتبط اسم أزبك بالمنطقة فصارت تعرف بالأزبكية .

---

(١) مقالة الأهرام الصادر فى ١٩٦٩/١/٣١ بقلم الدكتور حسين عبد العليم عليوه .

وقد أنشأ الأمير أزبك عددا من المنشآت الدينية والمدنية ، التى تطل على البركة وكان من ضمنها قصره الفخم ، ومسجده الذى عرف باسمه ، وقد أنشأه عام ٨٨٢ هـ وكانت تتصدره صفّة من القصور المبنية القائمة على أعمدة رخامية رشيقة ، كما كان يضم مئذنة مرتفعة تتكون من دورين . وقد استمر هذا المسجد قائما حتى عهد الحملة الفرنسية ، حيث تحول المسجد إلى متجر كبير ، وأهمل منذ ذلك الحين ، ثم هدم تماما فى عهد الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ ، عند إقامة دار الأوبرا القديمة وبهدمه أصبح المسجد سيرة تروى ، بعد أن كان رمزا لبداية تعمير وإنشاء حى كبير لعب دورا هاما فى تاريخ وحياة القاهرة فى العصر التركى .

ومنذ عهد الأمير أزبك ، بدأ العمران يتسع فى حى الأزبكية ، وكان لموقعه المتوسط وجمال مناظره ، أن أصبح المكان المفضل لدى أعيان مصر وأمرائها من مماليك وأتراك فتسابقوا فى إقامة دورهم فيه ، حتى غدا هذا الحى فى العهد العثمانى من أرقى أحياء القاهرة وأجملها وأغناها بالقصور الفخمة والبساتين النضرة .

حدود حى الأزبكية :

وكانت تتاخم حى الأزبكية ، عدة أحياء أخرى راقية ، ففى شماله كان يقوم الحى القبطى على جزء من حى المقس (باب الحديد حاليا) وقد شيدت فيه فيما بعد الكنيسة المرقسية الكبرى ، وإلى الشرق من حى الأزبكية ، كان يقوم « حى الافرنج » الذى سكنه الأجانب ، وأقاموا به فنادقهم ومتاجرهم ودورهم ، التى كانت تضم أيضا منازل قناصل الدول الأوربية ، وإلى الشرق من حى الافرنج كان يقع « حى اليهود »

ولا تزال تحمل اسمه « حارة اليهود » حتى الآن .

أما فى الجنوب فكان يقوم حى الموسكى ، حيث يصل شارع الموسكى بين بركة الأزبكية والخيلج المصرى ، ولا يزال يمتد جزء من الشارع حتى الآن ، بين ميدان العتبة الخضراء — التى تدخل فى نطاق حى الأزبكية — وبين شارع الخليج المصرى الذى حل محل الخليج نفسه بعد ردمه (أصبح شارع بور سعيد الآن) .

وصف بركة الأزبكية :

قال أحد أدباء ذلك العصر وهو الشيخ العطار ،فى وصف ميدان الأزبكية والبركة ، ما نقله عنه الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى كتابه « عجائب الآثار » :

« أما بركة الأزبكية ، فهى مسكن الأمراء وموطن الرؤساء ، قد أحدقت بها البساتين الوارفة الظلال ، والعديمة المثال ، فترى الخضرة فى خلال تلك القصور ، المبيضة كثياب سندس خضر على أثواب من فضة ، يوقد بها كثير من السرج والشموع ، فالأنس بها غير مقطوع ولا ممنوع ، وجمالها يدخل على القلب السرور ، ويذهل العقل ، حتى كأنه من النشوة مخمور » .

أهم المنشآت بالحى :

أقيمت فى العهد المملوكى عدة منشآت معمارية فى هذا الحى وحول بركتها ، ومن أهمها القصور والدور التى كانت تطل بواجهتها على البركة وميدانها . ومن أمثلتها قصر محمد بك الألفى الذى ذكر آنفا ، والذى كان يتكون من ثلاثة مبان جميلة ، تحيط بها وتتخللها الحدائق الغناء ، وقد تم

بناء هذا القصر فى نفس الوقت الذى دخلت فيه جيوش نابليون القاهرة ، فبادر نابليون بالاستيلاء عليه ، وبعد جلاء الحملة الفرنسية أصبح القصر فندقا مشهورا يؤمه السياح والزوار الأجانب بما يعرف بفندق شبرد ، الذى احترق فى حريق القاهرة المشهور فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، ثم نقل الفندق على النيل بجوار فندق سميراميس سنة ١٩٥٥ .

ومن أهم القصور التى بنيت قبل قصر الألفى ، القصر الذى بناه على بك لزوجته المفضلة السيدة نفيسة خاتون بدرب عبد الحق السنباطى المطل على بركة الأزبكية .

وهو القصر الذى كان مقرا لأول صالون اجتماعى فى الشرق فى القرن السابع عشر . ولما دارت فى أبهائه من أحداث سياسية هامة سيأتى ذكرها فيما بعد ، حيث عاشت فيه السيدة نفيسة المرادية أطول فترة فى حياتها من سنة ١٧٧٣ حتى سنة ١٨١٦ م .

ومن القصور الأخرى قصر أحمد الشرايبى ، من أكبر تجار القاهرة ، وكان يشرف بقبابه المذهبة ونقوشه الزجاجية الملونة على بركة الأزبكية ، كما أنشأ الفقيه السيد سعودى منزلا كبيرا على البركة ، وأحاطه بحديقة غناء ، أباح لسكان القاهرة دخولها والتنزه بين أرباضها ، كما كانت القوارب تقف أمام عتبات قصره .

وكان أيضا من بين القصور العديدة التى أنشئت فى حى الأزبكية قصر الشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، وكان بقصره كثير من التحف النفيسة والكتب المجلدة الفاخرة .

وقد زار القاهرة فى العصر التركى عدد من الرحالة الأجانب ،

وسجلوا مشاهداتهم فى حى الأزبكية ، ومن هؤلاء الرحالة دى تيفنوا الذى زار القاهرة بين سنتى ١٦٥٦ ، ١٦٥٨ ، ومما قاله فى مذكراته ، أن مياه النيل كانت تظل ببركة الأزبكية نحو أربعة أو خمسة أشهر .

وكانت تقام بميدان الأزبكية الاحتفالات العامة الكبيرة فى المناسبات المختلفة ، فتنصب الزينات ، وتقام السرادقات الواسعة ، وتحتشد الجماهير الذين تمتلئ بهم الطرقات والشوارع ، يتجمعون حول الشعراء والمداحين ، ويستمعون إلى القصص الشعبى على أنغام الرباب ، كما كانت تقام فى المناسبات الدينية مواكب وأذكار الدراويش حيث تقدمها أعلامهم ومصابيحهم المحمولة على سوارى خشبية مرتفعة .

وفى عهد الحملة الفرنسية فى أواخر سنة ١٧٩٨ ، كان الحى أكثر أحياء القاهرة رقيا وأوسعها ، لذلك أقام فيه نابليون ، وأفرد لقواده بعض القصور المحيطة بالبركة وقد تسبب الاحتلال الفرنسى ومقاومة الأهالى له ، فى هدم الكثير من المساجد والدور وتخربت أغلب البساتين ، وترك الأهالى قصورهم للجنود الفرنسيين .

الحكم فى عهد مراد بك وإبراهيم بك

لم يمكث محمد بك أبو الذهب فى الحكم بعد خيانته لسيده أكثر من عامين ، بينما قضى على بك فى حكمه عشر سنوات ، وقد حاول أبو الذهب فى حكمه إنتزاع الجزء الجنوبى من الشام حتى بلغ عكا ، غير أن الأجل لم يمهله ، ومات بالحمى التيفودية فى عنفوان شبابه، فإنه لم يبق بعد دخوله عكا إلا أياما أربعة ، قضاها محموما ثم توفى ، وتناقلت الرسل نبأ موته ، ولم تبلغ مصر أنباء انتصاره إلا مع إشاعة وفاته سنة ١٧٧٥ وخلص الأمر بعد وفاته إلى مراد بك وإبراهيم بك .

وإلى القارئ بعض المعلومات عن كل منهما :

إبراهيم بك :

كان غلاما شركسيا ، أعتقه سيده أبو الذهب وزوجه بأخته ، وكان مشهورا بشجاعته ونبوغه فى مضمار الفروسية . ساكن الجأش ، صبورا ، فيه حلم وتؤدة ، قريب الانقياد للحق ، متجنبا أهل الهزل والمجون ، إلا نادرا مع الكمال والحشمة ، وكان لطيف المعاشرة ، متساهلا مع مماليكه ، حتى طغوا وزاد جبروتهم وظلمهم .

مراد بك :

كان من مماليك على بك . اشتهر بالقسوة والتهور ، مغرورا بنفسه ، حاد الخلق عصبى المزاج ، ظالما غيورا ، وكان يجمع إلى هذه الصفات ، جهلا فاضحا معيبا ، وقصر نظر قل أن وصل إليه واحد من حكام مصر .

وكان الحكم مشتركا بين إبراهيم بك ومراد بك ، استمرا يحكمان مصر مدة طويلة ، لعلها لم تر فى تاريخها حكما أسوأ منه ، ولا حاكمين فى مثل قسوتهما وجبروتهما وأنانيتهما وجهلهما .

وكانت صفات إبراهيم بك وشخصيته اللينة المتساهلة ، كفيلة ، بإطلاق يد شريكه الطاغية مراد ، فى أغلب عهد حكمهما الذى طال نحو ثلاثين سنة . وكان لهما من السلطة والنفوذ ما لم يتح لغيرهما من الحكام المماليك ، حتى أن الدولة العثمانية لما وصلت لها شكاوى الأهالى وأنباء المظالم التى حفل بها عهدهما ، أرسلت حملة عسكرية تأديبية لمصر بقيادة حسن باشا القبطان،واستطاع هزيمتهما وأن يستقر فى القلعة بعد هروبهما إلى الصعيد . ولكن الدولة عادت بعد ذلك فأصدرت عنهما عفوا وأمرت حسن باشا القبطان بترك مصر سنة ١٧٨٧ وأن يسافر لحرب روسيا .

وكان لإبراهيم بك ٦٠٠ مملوك ، ولمراد بك ٤٠٠ مملوك ، وكان ما يملكه غيرهما من كبار أمراء المماليك يتراوح ما بين ٥٠ ، ٢٠٠ مملوك لكل .

ولكن هذه السيطرة كلها كانت مسلطة على أهل مصر ، حتى ترك كثير من مالكى الأرض بلادهم وزروعهم ومواشيهم فرارا من الظلم ، وكثرت الأوبئة والفتن والمجاعات .

وانعدم الأمن ، فكان المسافر يستأجر الأعراب لحراسته ، وهاجر الفلاحون إلى القاهرة بنسائهم وأولادهم يضجون من الجوع ويأكلون قشر البطيخ وأوراق الشجر ، حتى لم يجد الكناسون شيئا من ذلك

يكنسونه ، وأكل الناس لحوم الأطفال والخيل والحمير والبغال ، وكان هذا شأن الناس فى القاهرة وغيرها .

أما مراد بك وإبراهيم بك فكانا يعيشان فى قصور زاهرة ، وبنى أولهما قصرا شامخا فى الجيزة كما بنى غيره فى الروضة وجزيرة الذهب والعادلية وترسا .

ولقد بلغ من ضيق أفق مراد بك ، أنه كان يأمر بفرض الضرائب الباهظة على الأجانب ، متبعا سياسة طائشة نحوهم ، حتى كان ذلك سببا أو ذريعة اتخذها نابليون للحملة على مصر . وكانت للفرنسيين خاصة متاجر رائجة فى القاهرة والإسكندرية ورشيد ، فأثقل مراد بك أصحابها بالمغارم والمظالم والمصادرات حتى كثرت شكاواهم إلى الدولة العثمانية فى اسطمبول ، ولكنها مع ذلك لم تستطع أن تكف مراد عن ظلمه ثم كثرت شكاواهم مرة أخرى إلى حكومة الجمهورية فى باريس .

وقد واجه الشيخ محمد السادات أحد كبار العلماء فى ذلك العصر مراد بك بعد قدوم الحملة الفرنسية وقال له :[١]

---

(١) هو السيد محمد السادات سليل بيت السادات العريق فى المجد وشرف المحتد ، تلقى العلوم الشرعية على شيوخ الأزهر وجمع بين العلم وشرف النسب ، عاش وافر الحرمة ، نافذ الكلمة ، عظيم المكانة بين الناس سواء قبل الحملة الفرنسية وفى خلالها وبعد انتهائها ، كان جريئا فى الحق لا يهاب من بيدهم سلطة الحكم ، وقد نقم مراد بك عليه هذه اللهجة فى الخطاب ، وأسرها فى نفسه ، قال الجبرتى فى هذا الصدد : إن مراد بك بعد أن تصالح مع الفرنسيين أغراهم بالسيد السادات ، فكان هذا الإغراء من أسباب اضطهادهم إياه ، وقد ذكر عنه المسيو فلكس مانجان فى كتابه تاريخ مصر تحت حكم محمد على أنه لم يكن يحب المماليك ، وكان المماليك من جهتهم لا يحبونه ويحقدون =

« إياك بظلمك واعتدائك على الإفرنج ملكت البلاد للأجانب » .

وقد أحسن المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى فى وصف مراد بك عندما قال :

« إنه تغلب عليه طبيعة الخوف والجبن مع التهور والطيش والتورط فى الإقدام مع عدم الشجاعة »

ولقد استنفذ مراد بقسوته وطيشه وظلمه موارد البلاد ، واستنزف كل ما فيها من ثروة ، وكان متعاظما متكبرا . أقام ست سنين فى قصره بالجيزة لا يقدم إلى القاهرة ولا يلتقى بالأمراء فيها ، ولا يحضر مجالس الديوان ، فإذا ما قدم والٍ جديد من الدولة جاء للسلام عليه ثم لا يراه بعد ذلك ، كما كان مخادعا مخاتلا إذا التقى بمن يستحى منه أو يخافه تخلص منه حتى لا يعده بشىء ثم تحاشى أن يلقاه بعد ذلك ، وكان كل همه الانهماك فى ملذاته واستجلاب المماليك .

وقد قال عنه الجبرتى :

« إن مراد كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم المصرى ، ولم يذكر له فضيلة واحدة ، سوى أن كان يحترم العلماء ويتأدب معهم ، وينصت لكلامهم ، ويقبل شفاعتهم ، ويميل بطبعه إلى الإسلام والمسلمين » .

= عليه لمكانته من الشعب ، وقد رفض عضوية الديوان فى عهد الحملة الفرنسية ، وظل محفوظ الكرامة مقبول الشفاعة ، ولم تلن قناته للفرنسيين ولا هم كانوا يثقون به .

أول ظهور للسيدة نفيسة المرادية فى المجال السياسى

كانت(١) الحاصلات الزراعية التى تنتجها البلاد فى أواخر القرن الثامن عشر ، تتبادلها المدن والقرى ، فتأخذ منها حد كفايتها ، وما فضل عنها يصدر من مصر مع ما تنتجه الصناعة المصرية إلى الأقطار الإفريقية وبعض البلاد الأوربية ، فيباع منها بثمنه ، أو يعوض عنه ببضائع من التجارة ، وقد كان لمركز مصر فضل كبير فى جعلها ملتقى ومستودعا للتجارة الخارجية .

وقد اجتذب هذا المركز التجارى عددا من الجاليات الأجنبية ، سوادهم من الإيطاليين وبخاصة سكان البندقية ، والفرنسيون والأروام ، وكانوا يقيمون بالقاهرة والإسكندرية ورشيد ودمياط .

ثم كان لمصر جمارك فى ثغورها التجارية وهى :

القاهرة — مصر القديمة — بولاق — القصير — السويس — دمياط — رشيد — الإسكندرية .

أما جمرك القصير فكان متروكا لحكام المناطق القبلية ، وأما جمارك باقى الثغور فكانت مقسمة بين مراد بك وإبراهيم بك ، فاختص مراد بك بجمارك القاهرة ، بولاق ، ومصر القديمة ورشيد ودمياط ،

---

(١) من تقرير المسيو جيرار Girard وكيل إدارة الرى فى عهد الحملة الفرنسية ، يصف مركز مصر التجارى فى أواخر القرن ١٨ . (تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى جزء ١ ص ٣٨ .

والإسكندرية ، أما إبراهيم بك فاختص بجمرك السويس ، وكان أكثر حركة وإيرادا ، لأن إليه ترد بضائع الهند وبلاد العرب . وكان إيراده وحده يعدل إيراد القاهرة ودمياط ورشيد والإسكندرية جميعا .

وكان إبراهيم بك يقيم من أتباعه عمالا يرصلون على مكوس الجمرك بخلاف مراد بك ، فإنه أعطى جمارك الثغور التى كانت فى قسمة لأربعة ملتزمين ، وجعل على كل منهم خراجا معينا يؤدى إليه فى ميعاده ، وينالون هم إيراد الجمارك لأنفسهم ، وكانوا يتكفلون بمصاريف إدارتها كمرتبات الكتبة والعمال ، وكان إيراد جمارك القطر المصرى وقتئذ نحو ٣ مليون فرنك ، أى ما يعادل (١٢٠ ألف جنيه مصرى) فى ذلك الوقت[١] تحتسب فيها المصاريف وأرباح الملتزمين .

وقد عرفنا من قبل ، أن عهد مراد بك وإبراهيم كان حافلا بالمظالم ، وقد حدث لبعض التجار الفرنسيين أن تعرضوا للسلب والنهب من بعض البكوات أو عملائهم ، فلجأوا إلى السيدة نفيسة ، يستعينون بها لرد أموالهم المنهوبة ، لما عرف عنها الميل إلى تنشيط التجارة والصناعة ، ولإيقاف المظالم التى يتعرضون لها ، فاستجابت لمطالبهم ، واتصلت بالمسئولين عن هذه الحوادث ، وقد كان لتدخل السيدة نفيسة الأثر الكبير فى سير العدالة ورد الحقوق المغتصبة ، وقد تكررت هذه الأحداث ، وتكرر اللجوء إلى السيدة نفيسة ، مما أوجد شعورا بالتقدير والامتنان ، لجهودها فى رفع المظالم ، وأصبح لها شهرة كبيرة فى هذا المضمار وصلت إلى الأوساط الأوربية ، وأرسل التجار الفرنسيون إلى

---

(١) كما يقدرها المسيو استيف فى كتاب « تخطيط مصر » الجزء الثانى عشر .

حكومة الجمهورية الفرنسية يمتدحون عملها ، وينشرون أفضالها ، مما دعا الحكومة الفرنسية قبل الحملة الفرنسية ، أن تهديها ساعة قيمة ، مرصعة بالماس ، تقديرا لها لحسن صنيعها ، ولتكون رمزا وتعبيرا عن إعجاب الحكومة الفرنسية ، لسلوكها حيال المظالم التى تعرض لها التجار الفرنسيون . وقدم هذه الهدية القنصل الفرنسى مجالون Magallon[1] .

ويدل هذا الحادث على أن نفيسة المرادية كانت شخصية ذات نفوذ كبير فى دواوين الحكومة ، ولها تأثير نافذ على ولاة الأمور ورجال الجمارك ، وكانت على طرف نقيض من زوجها مراد بك الذى قال عنه الجبرتى يوم وفاته فى ١٨ أبريل سنة ١٨٠١ ودفنه بسوهاج فى مسجد الشيخ العارف ، حين نعاه فى وفيات ١٢١٥ هـ :

«إنه كان من أعظم الأسباب فى خراب الإقليم المصرى ، بما تجدد منه ومن مماليكه وأتباعه من الجور والتهور ومسامحته لهم ، فلعل الهم يزول بزواله» .

كما أن قيامها بهذا العمل الفذ بالنسبة للمرأة فى الشرق فى ذلك العهد ، وقد اشتهرت بالجهل ، وفقدان أى أثر لها فى المجتمع ، سواء من الناحية الثقافية والاجتماعية ، يعد معلما بارزا لأول نهوض لامرأة شرقية فى مجال العمل الوطنى والسياسى والاجتماعى فى منتصف القرن الثامن عشر حتى

---

(١) هو شارل مجالون ، كان تاجرا فرنسيا من سكان مرسيليا ، رحل إلى مصر وأقام بها زهاء ثلاثين عاما مشتغلا بالتجارة ، فاكتسب خبرة واسعة فى الشئون المصرية ، فعين قنصلا عاما لفرنسا عام ١٧٩٣ ، وكان من أنصار فكرة احتلال مصر وكان يرسل المذكرات والبيانات إلى حكومة بلاده ، عن سوء الإدارة والحكم بالبلاد ، وسوء معاملة التجار الفرنسيين .

أوائل القرن التاسع عشر ، والذى كانت المرأة فيه مستغرقة فى نوم عميق ، لا يسمع لها صوت ، ولا ترقب لها حركة ، متذرعة بالكسل والجهل والجمود ، وقدتكون مظلومة فى هذا الأمر ، لأن الرجل لم يعلمها ولم يشجعها على الانطلاق من هذه القيود ، أما السيدة نفيسة المرادية لم تطفر هذه الطفرة ، ولم تثبت شخصيتها إلا بفضل التعليم والتهذيب الذى أولاها إياه زوجها الأول ، وإذعان زوجها الثانى مراد بك بفرض أن شخصيتها كانت طاغية عليه ، حتى أنه لم يصارحها فى نواحى الإصلاح الذى عنيت به ، وهو إصلاح كان خليق به أن ينفذه ، لأن المظالم التى حدثت للتجار الفرنسيين كانت بأسباب سياسته الخرقاء وسياسة عملائه من الأتباع والحكام . لا سيما وقد طال حكمه (عن كل حكم مملوكى سابق) إلى ثلاثين عاما ، وقد نسب إليه العلماء أن مظالمه أدت إلى الحملة الفرنسية ، وتدخل الإفرنج فى حكم البلاد ، ولو كان له بسطة من وعى ، أو مسكة من عدل ، لانتظمت أحوال البلاد فى عهده ، ولعمها الرخاء ، ولنعم أبناء الوادى بظلال اليسر والرخاء والاستقرار .

والمرأة العظيمة التى تعنى برفع المظالم عن الأجانب ، ورد حقوقهم لا شك أنها لن تغمض عينيها عن المظالم التى تحيق بالمواطنين من حكامهم من طغاة المماليك وأعوانهم ، ولذلك كانت موئلا لهم فى إعانتهم فى ما يحيق بهم من مظالم ، وطالما لجأوا إليها ، فوجدوا فى جنابها كل عون وغوث ، ومدت لهم من أسباب الأمن والحماية مما ألهج الألسنة بالثناء عليها وتخليد ذكراها فى التاريخ وقد سماها الجبرتى فى نعيه لها « الشهيرة الذكر بالخير » وسترى فى السطور القادمة ، ما يوضح هذا المعنى ويؤيد هذا الوصف .

نفيسة المرادية ونابليون بونابرت

أقلعت الحملة الفرنسية على مصر ، من مياه جزيرة مالطه يوم ١٩ يونيو سنة ١٧٩٨ ووصلت تجاه الإسكندرية ليلة ٢٠ يوليو سنة ١٧٩٨ ، وزحفت الجيوش الغازية على المدينة ، فاحتلتها فى ذلك اليوم . ودخل بونابرت[1] وحملته إلى مصر ليؤسس إمبراطورية شرقية ، تمنى أن يجعل

---

(١) ولد نابليون بونابرت فى مدينة أجاكسيو Ajaccio عاصمة جزيرة كورسيكا فى ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩ وهو من أسرة أصلها إيطالى ، وكانت جزيرة كورسيكا تابعة لجمهورية جنوى ثم استولت عليها فرنسا سنة ١٧٦٨ أى قبل ولادة نابليون بسنة واحدة ، والجبرتى يسميه (بونابرته) وقد عرف فى مصر بهذا الاسم ، ولم يذكره الجبرتى باسم نابليون قط . لأنه إلى ذلك العهد (عهد الحملة على مصر) كان يعرف بالجنرال بونابرت .

تلقى نابليون دروسه الأولى فى مدرسة أجاكسيو ، ثم التحق بمدرسة بريين Brienne الحربية بفرنسا ، ثم دخل مدرسة باريس الحربية سنة ١٧٨٤ ، وانتظم فى سلك المدفعية وجاز الامتحان بنجاح سنة ١٧٨٥ . والتحق بالجيش ، ثم انضم إلى الثورة الفرنسية حين شبت ، وبعد أن أعلنت فرنسا الحرب على النمسا ثم على إنجلترا وهولانده وأسبانيا ، تحرج مركز فرنسا وأحاط بها الأعداء من كل جانب ، واحتل الإنجليز سنة ١٧٩٣ طولون ميناء فرنسا البحرى على البحر الأبيض المتوسط ، فى تلك الحالة الحرجة ظهر نبوغ الضابط نابليون ، وقام باسترجاع طولون وإجلاء القوات الإنجليزية عنها ، وعهدت إليه الحكومة بمهمة الدفاع عن الجمعية الوطنية وإخماد فتنة الخارجين عليها سنة ١٧٩٥ فأخمد الفتنة وأنقذ الجمعية الوطنية ، ثم عين قائدا للجيش الفرنسى فى حرب إيطاليا سنة ١٧٩٦ فظهرت فيها عبقريته الحربية ، وبعد انتهاء حملته على إيطاليا ، أعقبتها الحملة =

من نفسه إمبراطورها وأن يقطع الطريق على عدوة فرنسا الكبرى بريطانيا فى أملاكها التى لا تغرب عنها الشمس ... وبوصوله إلى الإسكندرية وتحركه إلى القاهرة ودخوله إياها مع جنرالاته وأركان حربه ... لم تدخل المشاكل والاضطرابات مصر وحدها ... بل دخلت أيضاً إلى بيت نفيسة المرادية الوادع ... وكانت أول المشاكل بالنسبة لها هزيمة مراد بك فى موقعة شبراخيت وفراره مع مماليكه وأعوانه أمام بطاريات بونابرت ، لينظم جيشه وخطوط دفاعه لصد الفرنسيين كما ادعى ....

وأحست نفيسة ساعة دخل مراد عليها فى بيته فى الجيزة ، أن سوء الطالع قد رجع مع عودته . وأن مأساة الأمس القريب تتجدد فى صورة أبشع ، فتذكرت هزيمة على بك الكبير على أثر خيانة أبى الذهب ومراد ، ولكنها رأت عظم الفارق بين الهزيمتين والعودتين : الأولى إلى بيتها فى درب عبد الحق بالأزبكية والثانية فى الجيزة ، وأيقنت أن عودة زوجها فى هذه المرة ليست ككل عودة ، لأنها عودة لا بد أن يعقبها استعداد

= على مصر ، ولما عاد نابليون من مصر سنة ١٧٩٩ ، قلب نظام الحكم فى فرنسا ، ونودى به قنصلا أول ثم إمبراطورا سنة ١٨٠٤ ، وساق جيوشه على أوربا فغلبها على أمرها ... إلى أن أخذ نجمه فى الأفول فى هزيمة جيشه الجرار فى حملته على روسيا — ثم انتهت حروبه بهزيمته فى واقعة واترلو سنة ١٨١٥ ، ووقوعه أسيرا فى يد الإنجليز فنفوه إلى جزيرة نائية فى وسط المحيط الأطلسى تعرف بجزيرة « سانت هيلانة » وبقى فى هذه الجزيرة القاحلة ، يعانى غصص النفى وإدبار الدهر ، إلى أن مات بها سنة ١٨٢١ — ثم أعيد جثمانه للوطن بعد ذلك بأكثر من عشر سنوات فشيعت فرنسا جثمانه بكل إجلال وإكبار ، ودفن بالأنفاليد مثوى العظماء والخالدين .

وتنظيم ومقدرة وجهاد ثم خروج إلى عودة أو .... لا عودة بل .... إلى وداع ....

ووقفت نفيسة قلقة فى شرفة قصرها فى الجيزة ترقب زوجها وقد انطلق وسط مماليكه إلى موقعة إمبابة ... أو كما يسميها البعض موقعة الأهرام ... هل ينجح مراد هذه المرة فى صد قوات الغزو ، فتدور الدائرة على بونابرت وجيشه أم ماذا سيحدث ؟؟

وتلاقى الجيشان فى إمبابة ... وأعطى بونابرت شارة الهجوم وحصر القوات المملوكية فى مربع محكم التحصين من بطارياته ، ولم يستطع كر المماليك وفرهم أن يؤثر فيه ، وانطلقت النيران كالحمم .... ولم تلبث قوات المماليك أن راحت تتسلل هاربة تطلب النجاة .... وكان مراد الرهيب أول الهاربين ... وأسرع المتسلل الهارب إلى بيته لا ليودع زوجته الفاتنة نفيسة ، بل ليحمل ما خف وزنه وغلا ثمنه ، ويحمل زوجته بعد ذلك هول المسئولية فيكلفها بالحذر والمراقبة ، وأن تكون على اتصال دائم به ، فى المكان الذى سيلجأ إليه من صعيد مصر .

وحلا قصر مراد بك ... وانتابت الحيرة والتوجس نفيسة هذه المرأة العظيمة ، وماذا ستخبئ لها الأقدار بعد هرب زوجها ... ولم تلبث أن استيقظت من كابوس ظلت تقاسى من وطأته زمنا ، فقد أيقظتها أبواق مقدمة جيش نابليون وقد وصل بنفسه إلى الجيزة وتخير بيت مراد بك لسكناه ... وشعرت نفيسة هانم وهى تغادر مملكتها الصغيرة أن الحظ قد أدبر عنها ، وأن عليها من اليوم أن تواجه ظروف القدر بقلب ثابت ، خرجت محطمة النفس ، لتعيش فى بيت آخر من بيوت مراد بك

العديدة ، وقد حرصت جهدها على طاعته وتنفيذ أوامره ...

وبتوجيه من نفيسة راح أتباعها يعملون ، وقد ألهبت قلوبهم للقضاء على الفرنسيين مؤكدة أن جهادهم ليس غير جهاد فى سبيل الله ، واستطاعت أن تفيد زوجها الهارب وأن تمده بكثير من الأخبار التى تهمه ، وهو يستعد لجولة قادمة من جولات الكفاح فى سبيل استرداد سلطاته ، وقد تصور أنه قادر بغلول بكواته المماليك أن ينتزع النصر من يد بونابرت ... !!

وتعودت نفيسة المواطنة المصرية المجاهدة ، أن ترتب مواعيد لقاء معينة بينها وبين مراد بك — عن طريق إشارات ضوئية حذقتها — فكانت إذا حان الموعد تصعد أعلى بيتها فتبلغه بالإشارات كل ما يكون لديها من أنباء ، ويصارحها بكل ما عنده وبمدى استعداده ، وتعدد اتصالاته بالأنصار . فكانت تشجعه على الاعتماد على مملوك دون آخر حتى استطاع مراد أن يلم تماما بأحداث البلاد ، وثورات القاهرة ، وأهل الأحياء وشيوخ الأزهر والأعيان فى جهادهم ضد بونابرت ورجال جيشه .

وبدأ الناس يتهامسون عن إخلاص نفيسة ، وجرأتها ومهارتها فى تنظيم حركات المقاومة السرية ، ومواعيد اللقاء المنتظمة بينها وبين مراد بك عن طريق الإشارات الضوئية البارعة — ووصلت الهمسات التى استحالت إلى دوى إعجاب وحماسة — إلى مسامع نفيسة وخشيت وخشى أعوانها أن يسمع نابليون وقواد جيشه لغط الشعب بالشائعة فيضعها تحت مراقبته ومراقبة جواسيسه ، وفكرت فى سرعة للقضاء على الشائعة ونفى

التهمة إن هي ووجهت بها ، وأخفت أول ما أخفت أجهزة تبادل الإشارات الضوئية ، ورأت من الحكمة مواجهة عدوها وعدو بلادها فى لقاء يزيل شكوكه ... وتركت بيتها إلى حيث كان بونابرت نفسه ثم طلبت مقابلة خاصة .

وابتهج بونابرت دون شك لسعي نفيسة هانم المرادية إلى مركز قيادته بنفسها ، وتمنى لو أنها جاءته لصلح ومهادنة بينه وبين زوجها المتمرد مراد بك الذى كان مصدر متاعب له وكل جيشه .

وبالغ القائد فى تصوراته ، وارتاح إلى تصور سيدة مصر الأولى فى صورة الصديقة الوفية لحكومته ، وأنها لم تنس أن حكومة « الديركتوار » قد حرصت بدورها إلى استمالتها إلى جانب فرنسا ، وأنها أهدت إليها ذات يوم سابق على الحملة الفرنسية على مصر ، ساعة ثمينة حملها إليها قنصل فرنسا العام شارل مجالون الكبير ... تذكر بونابرت كل هذا وهو فى طريقه للترحيب بزائرته الكبيرة ، التى صارحته أنها إنما جاءت لتقضى على شائعة تبغضها قبل أن تصل إليه ، وهى شائعة الاتصال بينها وبين زوجها عن طريق الإشارات الضوئية ... .

وابتسم بونابرت فى صراحة وهو يصغى إلى زوج غريمه الخطير مراد بك ، وأسرع يقول لها مؤكدا أنه حتى لو جاءته هذه الأكذوبة ما ركن إليها ولا أبدى لها اهتماما !!

وانتهى اللقاء ، وانصرفت نفيسة هانم هادئة النفس ، وبونابرت يراقبها فى ضيق من خابت أحلامه فى أن تعمل نفيسة على تهيئة الجو لمعاهدة بينه وبين زوجها غريمه الخطير مراد لتوفر على القائد عناء

المطاردات ، فيتفرغ لبناء إمبراطوريته الشرقية ، وسلم بونابرت بالأمر الواقع وعول على العمل الحازم للقضاء على تحركات مراد بك فى الصعيد وإتمام الاستيلاء على بلاد الشام .

وكما كان بونابرت رجل حرب ، كذلك كان بارعا فى مجال السياسة ، وكان بعيد النظر بحيث رأى أنه ما دام شيخ البلد إبراهيم بك قد هرب إلى بلاد الشام ... وأنه لم يبق أمامه فى الميدان غير مراد بك عدوه اللدود الذى كلفه وجيشه خسائر لا تقدر بثمن — فقد صمم على أن يتخلص منه سلميا ، وقد صارح بونابرت نفيسة بذلك ، وسألها أن تتدخل عند زوجها ليقبل مهادنته وأن يكون له وحده الحكم على الوجه القبلى تحت إدارة الفرنسيين فوعدته خيرا .

وراحت نفيسة تفكر فى الأمر ، وبونابرت يتعجلها ، ولكنها كانت تعمل على مماطلته ، وتسرع متجهة إلى ميدان الجهاد[1] لتقف إلى جانب الشعب ، فتمد المقاومة بالمال والسلاح ، وتجتمع بالعلماء وشيوخ الأزهر تحرضهم وتشجعهم وتدعوهم إلى المثابرة فى جهاد الغاصب .

ولكنها ذات يوم حملت إلى بونابرت أن زوجها يرغب فى إنهاء هذا الصراع الذى طال أمده ، ويقبل شروط بونابرت بأن يكون حاكما للوجه القبلى .

واتفق بونابرت ومراد ... وسعد بونابرت بالاتفاق وتصوره النهاية

---

(١) مقالة السيدة سنية قراعة العدد ١٩٢ نوفمبر سنة ١٩٧٤ مجلة العربى . بعنوان : « مسلمات خالدات » .

السعيدة لمتاعبه فى مصر ... وظن أن السيدة نفيسة وراء هذا التغير السريع ، وأحب أن يرد لها جميلها ، وأن يشعرها أنه لن ينسى ما فعلت لتساعده على الاستقرار ، فرتب لها مائة ألف « فضة » كانت تصرفها كل شهر .

وسمع الشعب بما حدث ... ولم يستنكره ... ولم يدهش لنذالة المستعمر الأجنبى الذى يسعى إلى مصلحته ولا تهمه مصلحة مصر ، كما تهم أبناءها .

وفجأة ترك بونابرت مصر ... وفى جو من السرية المطلقة التى لم يعرف بمقدمتها أقرب المقربين إليه ... وترك أمرا منه إلى الجنرال كليبر كى يخلفه فى قيادة الجيش وحكم البلاد . وسافر إلى فرنسا لينعم « بالكمثرى » التى قيل له فى مراسلات أنصاره إليه ، إنها نضجت وأن عليه أن يسرع باقتطافها .

الرائدة المحسنة

إن الإحسان إلى ذوى الحاجات فضيلة من أشرف فضائل العظمة الإنسانية ، وأقربها إلى الصفات الإلـٰهية ، لأنها قوة فى العظيم تعمل عملها فى إعانة الضعيف ، ولا تعمل عملها فى إذلاله وإرغامه ، على ديدن العظمة التى قد توصف بأنها قوة فرد عظيم ، ولـكنها لا تنسب إلى الإنسانية ولا تسمو إلى مقاربة الصفات الإلـٰهية .

وقد كانت السيدة نفيسة المرادية ، امرأة واسعة الثراء ، بفضل ما أورثها إياه زوجها على بك الكبير سلطان مصر ، وما كان عليه زوجها الثانى مراد بك من منعة وجاه ومال . وكان حرى بها وهى سيدة مترفة تقيم فى قصر باذخ ، وتنعم بالخدم والحشم والإماء ، أن تركن إلى حياة الدعة ، وتستسلم إلى دواعى السعادة والنعيم فى ظل هذا الثراء المقيم ، شأنها شأن جميع نساء حكام المماليك فى جميع عهودهم ، بل شأن المرأة الغنية عامة فى بلاد الشرق جمعاء .

ولكنها كانت ذات قلب رحيم ، وعقل حكيم ، ولب فطين ، فكان حب الخير والإحسان إلى المعوزين والضعفاء من أقوى الصفات التى ملكت عليها فكرها وأصبحت شغلها الشاغل . وقد استثمرت بذلك مالها خير الاستثمار ، فلم تعن بتكديس الأموال ، ولا بجمعها ومنعها ، بل أظلت بها الفقراء بعطفها ، وأطعمت الجائع ، وكست العريان وأغاثت الملهوف ، ودفعتها لإطلاق الأسرى والإفراج عن المساجين الأبرياء أثناء

الاحتلال الفرنسى الذى منيت به البلاد .

وخصلة الإحسان التى امتازت به هذه المرأة ، حين ندرسها ونستبطن بواعثها نجد أن صدورها منها كما تصدر الدوافع الضرورية التى تملك على الإنسان مشيئته ، ولا تكاد تبقى له على مشيئة يملكها بها أو يقاومها فيها ، فإن دوافع الإحسان فى هذه المرأة الكريمة أشبه شيء بدافع الحنان فى نفس الأب الرحيم ، وأى فضل للأب الرحيم فى عطفه على طفله الجائع أو طفله الباكى أو طفله السقيم .

إن فضل هذه الفضيلة يستصغر فى هذه السيرة ليبلغ غاية الكبر الذى تبلغه سجية إنسانية ، فقل إن شئت أنه لا فضل للسيدة نفيسة المرادية فى إحسانها للمعوزين إلا كفضل الأب ، أو الأم فى الإحسان إلى بنيها . ولكنكَ إذن تشهد بالفضل الذى لا فضل بعده للمرأة التى تملكها رحمتها بجميع الناس ، كما تملك الأب رحمته ببنيه ، فكانت حقا جديرة ليس بلقب أم المماليك فحسب بل أم المصريين جميعا !!

كانت محسنة إلى الغير ، من كل أعماقها ، كأن الإحسان تجسم إنسانا وعاش بين ثناياه ... ولما ذهب الغنى ، ودال المجد ، ونضبت الخزائن ، وأصبحت خالية الوفاض ؟؟.. وعدت عليها عوادى الأيام ، لم تتخل عن طبيعة الإحسان فيها ، فما زالت تساعد كل طارق يطرق بابها ، وكل بائس يقصد دارها . لا ترده خائبا بل معززا مكرما .

ولقد عاصرت المرادية أسوأ عهود المماليك فى الحكم ، وهو عهد حكم مراد بك زوجها الثانى ، وكانت على عكسه تماما من حيث الصفات ، فبينما كان جاهلا أخرقا طائشا كانت هى مثقفة ، حليمة ، تهتم

بمصالح الناس وبشئونهم ، وقد أضيرت البلاد بعد حكم مراد بك الطويل بالاحتلال الفرنسى ، ثم بعودة الاحتلال التركى بأشد مما كان ، فحدوث الصراع والمقاومة بين أمراء المماليك والحكام الأتراك ، ثم ولاية محمد على وتثبيته قواعد ملكه واستخلاصه الحكم له ولذريته ، ومصادرته أموال المماليك ، واستيلائه على جميع الأراضى الزراعية .

وكانت هذه العهود أسوأ ما مر بالبلاد ، حيث أغفل الحكام حق المصريين فى العدالة والحرية والأمن ، وتعرضت البلاد لأبشع الكوارث والمجاعات والأوبئة ، وتعرضت لموجات فظيعة من النهب خصوصا فى الأرياف ، حين كان الأمراء المماليك يقتتلون مع الحكام الأتراك ، وفى القاهرة من الجنود الدلاة والأناؤود والعثمانيين والفرنسيين .

فى هذا العهد تفنن الحكام فى بناء القصور ، والحصول على أكبر قدر من المغانم والمكاسب على حساب عرق الشعب ، بما يفرضونه على التجار والعمال والفلاحين من ضرائب ثقيلة ، وهدمهم بيوت الأهالى إذا أعوزتهم مواد البناء لبيوتهم .

والدولة العثمانية لاهية عن المظالم التى تقع على هذا الشعب البائس ، والظالمون سادرون فى غيهم ، متمادون فى جبروتهم ....

فى هذا الجو المضطرب ، والليل الطويل من الآلام والفجائع ، وأمواج المظالم والمصائب هادرة على رقاب المصريين ...

فى هذا العهد كانت السيدة نفيسة المرادية هى الشعاع الوحيد الذى يبعث الدفء والقوة فى جسم الوطن المنهوك من الظلم ، فكانت تبذل المعونة لمن تقع على رؤوسهم البلايا من أفراد الشعب ، وتدفع عن الناس

الكثير من المظالم بما لها من نفوذ وتداخل بين ولاة الأمور ، وتلبى نداء المستغيث بها ، وتجير من يستجير بها ، وتسعى لإنقاذ من يلوذ بها ...؟؟

وكانت تشمل بإحسانها كثيرا من العائلات التى نكبت بفقد عائلها ، بأسلوب فريد فى نظامه بالنسبة إلى ذلك العهد ، فهى تقرر إعانات شهرية منتظمة لا تنقطع . وهذا الأسلوب فى الإحسان يستدعى تنظيم السجلات ، التى تضم أسماء المنتفعين بالإحسان وعناوينهم ، والبيانات الضرورية عن حالة كل منتفع . وتعد نفيسة المرادية بهذا الوضع ، أول من أرسى قواعد خدمة الفرد على نمط يرقى إلى أحدث أساليب الخدمة الاجتماعية فى عهدنا الحالى ، وتعد من رائدات الخدمة الاجتماعية المنظمة فى مصر قبل أن تعرف فى مصر وغيرها من الأمصار ، ووزارات الشئون الاجتماعية ومصالحها المختلفة .

كما وأنشأت بقصرها مستوصفا للمرضى الفقراء ، الذين تحول ظروفهم المادية عن تحمل مصاريف الأطباء والدواء ، وكان أكثر العاملات فيه من جواريها وموظفى دوائرها ، وقد رصدت لهذا المستوصف ميزانية مالية خاصة به .

وكان هذا العمل من الأمور النادرة فى تلك الأيام ، ولعل قيام هذا المشروع له علاقة بإهداء الدكتور دى جنت طبيب الحملة الفرنسية فى مصر وإيطاليا خمسين نسخة من مؤلفه الطبى عن مرض الجدرى وطرق الوقاية والعلاج ، والمطبوع فى المطبعة التى أحضرها الفرنسيون معهم حال احتلالهم للبلاد .

ثورة القاهرة الأولى فى عهد الحملة الفرنسية وأسبابها

ثارت القاهرة فى وجه الفرنسيين يوم الأحد ٢١ أكتوبر سنة ١٧٩٨ ــ ١١ جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ .

ولم يكن مألوفا ولا منتظرا أن تثور القاهرة ، تلك المدينة الهادئة الوادعة ، التى احتملت ظلم حكامها السنين الطوال ، ولم يكن الفرنسيون يتوقعون أن تثور فى وجههم . ولكن ثورة القاهرة جاءت عنوانا لنفسية الشعب المصرى الجديدة ، فإن الحملة الفرنسية قد استفزت فى نفوس الشعب روح المقاومة الأهلية .

ولماذا ثارت القاهرة؟ وما هى الأسباب التى أشعلت نار الثورة فى تلك المدينة العظيمة الآمنة ، التى اشتهرت من قبل بالإخلاء إلى السكينة ؟!

ذكر الجبرتى أن تقرير الضرائب الفادحة التى فرضها الفرنسيون فى أوائل جمادى الأولى سنة ١٢١٣ هـ هو الذى أدى إلى نشوب الثورة .

الأسباب المالية

إن سلوك نابليون مع المصريين خالف فى كثير من المواطن ما وعدهم به فى منشوراته وبياناته ، لقد كان ينعى على المماليك ظلمهم واعتسافاتهم ، ولكنه بعد دخوله البلاد وتمكنه من الاستقرار فيها بأيام قليلة فرض على سكانها ضريبة فادحة فى شكل سلفة إجبارية . ولم يستطع « الديوان » أن يمنعها على الرغم من تدخله فى الأمر وتوسطه فى تخفيفها .

ذكر الجبرتى ، أنه فى يوم السبت ١٤ صفر سنة ١٢١٣ هـ (٢٨ يوليو سنة ١٧٩٨ ، أى بعد دخول الفرنسيين العاصمة بأيام معدودة ، وعقب تأسيس (الديوان) بثلاثة أيام :

« اجتمعوا بالديوان وطلبوا سلفة خمسمائة ألف ريال (مائة ألف جنيه) من التجار المسلمين والنصارى القبط والشوام وتجار الإفرنج أيضا » .

وذكر دى لاجونكيير[1] ، بعض ما فرضه نابليون فى أنحاء البلاد على مختلف الطبقات من القروض الإجبارية فى الأيام الأولى من الحملة :

١ ـــ تجار الإسكندرية ٣٠٠ ألف فرنك

٢ ـــ تجار رشيد ١٠٠ ألف فرنك .

٣ ـــ تجار دمياط ١٥٠ ألف فرنك .

٤ ـــ تجار المنسوجات بالقاهرة ٦٠ ألف ريال نقدا ، ٤٠ ألف ريال عروضا (ملابس وأحذية للجنود)

٥ ـــ تجار البن والبهار بالقاهرة ٢٠٠ ألف ريال .

٦ ـــ الأقباط الذين يتولون تحصيل الضرائب فى الأقاليم ١٠٠ ألف ريال

٧ ـــ تجار خان الخليلى ١٠ آلاف ريال .

٨ ـــ وكائل الصابون ١٠ آلاف ريال .

---

(١) تاريخ حملة مصر الجزء الثانى ، وكذلك مراسلات نابليون الجزء الرابع ، و رقم ٢٩٤٩ ، ٢٩٥٠ . (الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى جـ ١)

٩ ــ وكائل الفاكهة ٦ آلاف ريال .

١٠ ــ السقايين ١٥ ألف ريال .

١١ ــ تجار السكر ١٠ آلاف ريال .

١٢ ــ تجار الأقمشة الهندية بالغورية ١٥ ألف ريال .

وقد تفنن الفرنسيون فى إبتزاز الأموال ، ومصادرة الممتلكات بمختلف الوسائل ، فمن ذلك أنهم أذنوا لنساء البكوات المماليك أن يفتدين أنفسهن بالمال ليسكن فى بيوتهن . وإن كان عندهن شيء من متاع أزواجهن يبذلنه ، فإن لم يكن عندهن شيء منه يصالحن على أنفسهن ويأمن فى دورهن .

فهذه طريقة بلغت حد الإعنات والإرهاق فى جمع الأموال من النساء تلقاء أن يأمن على أنفسهن !! وهى أشد وطأة من الغرامات الحربية .

قال الجبرتى[١] :

« إن الست نفيسة زوجة مراد بك ظهرت وصالحت عن نفسها وأتباعها من نساء الأمراء والكشاف بمبلغ قدره ١٢٠ ألف ريال فرنساوى ، وأخذت فى تحصيل ذلك من نفسها وغيرها ، ووجهوا عليها الطلب (أى طالبوها) وكذلك بقية النساء بالوسطاء المتداخلين فى ذلك فصاروا يعملون عليهن إرهاصات وتخويفات » .

ويقول ريبو[٢] :

(١) تاريخ الجبرتى الجزء الثالث .

(٢) التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية جـ ٣ .

إن مجموع ما فرضه الفرنسيون على نساء المماليك بلغ ٦٠٠ ألف فرنك ، وإذا رجعنا إلى نص الأمر الذى أصدره نابليون بتاريخ ١٤ ترميدور (أول أغسطس سنة ١٧٩٨) فى شأن ما فرض على السيدة نفيسة زوجة مراد بك نجد أنه يقضى بأن تدفع هى وحدها ٦٠٠ ألف فرنك عن نفسها ، وعن نساء المماليك من أتباع مراد بك ، فيفهم من ذلك أن المبلغ الحاصل من نساء المماليك يزيد على ٦٠٠ ألف فرنك وذلك فى ٢١ سبتمبر سنة ١٧٩٨ . ولا شك أن هذه مبالغ جسيمة إذا قيست بثروة البلاد فى ذلك العهد .

ويقول ريبو أيضا :

إن السيدة نفيسة اضطرت لدفع حصتها فى الغرامة الحربية أن تتنزل عن حليها وجواهرها ومنها الساعة المرصعة بالجواهر ، كان أهداها لها القنصل مجالون باسم الجمهورية الفرنسية تقديرا لخدماتها ورعايتها للتجار الفرنسيين . « فكان اضطرارها للنزول عن هذه الهدية للفرنسيين احتجاجا شريفا منها » .

وقد ذكر الجبرتى ما وقع على الناس من المغارم الأخرى من تفتيش المنازل وكسر الدكاكين بسوق السلاح وغيره من الأحياء ، ويأخذون ما يجدونه فيها ، وطلبوا من أهل الحرف والتجار بالأسواق نقودا على سبيل القرض مبالغ يعجزون عن دفعها ، فضج الناس واستغاثوا وذهبوا إلى الجامع الأزهر والمشهد الحسينى وتشفعوا بالمشايخ ، فتكلموا لهم فأنزلوها إلى نصف المطلوب .

ومن المظالم التى عجلت بنشوب الثورة أنهم أخرجوا كثيرا من

أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها ، وهدموا كثيرا من المبانى والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة ، وأمروا كذلك بهدم أبواب الحارات والدروب . وكان الفرنسيون يسرفون فى قتل الناس ليدخلوا الرهبة فى قلوب الأهالى ، ويحملوهم على الخضوع والإذعان . كل هذه الأسباب مجتمعة جعلت فكرة الهياج تختمر فى الأذهان ، وجاءت الضرائب الجديدة فأشعلت بركان الثورة ، وكانت فداحة هذه الضرائب من أهم العوامل التى عجلت بها .

الصالون الاجتماعى الأول فى مصر

ما أشبه الحديث الحلو من زكية واعية ، بمطفرة ماء قراح ، فهى إن لم تنقع الصدى وتروى الغليل ، بللت ظمأ العيون ، ولعل هذا التصور وقع فى خاطر الشاعر حين سمع امرأة تتحدث دون تكلف ولا فضول ، فتخلب الألباب ، بحلاوة لفظها وبراعة وصفها ، فراح يقول فيها وفى حديثها :

إن طال لم يملل وإن هى أوجزت   ود المحدث أنها لم توجـــز

وكان للعرب شغف بهذا اللون من فتون المرأة وهو حلاوة حديثها ، فأحب الخلفاء والأمراء أن يطرفوا مسامعهم بحديث النساء ، على أن لحديث المرأة فى نفس الرجل مهما كانت ثقافته ، مشحذة لفكره ، ورهافة لتذوقه وشعوره ، بل هو سلوى له ومؤانسة ، فكيف إذا كان الحديث من مثقفه لبقة ، تحسن التحاور والتناور ، وتتقن المساجلة والمطارحة وهذا سر مجلس الأدب عند العرب .

فكم غلبت بلاغات النساء فى الحديث ، كل خليفة داهية ، وعامل جبار ، مثل ما كان من هند بنت عتبة ، وليلى الأخيلية ، وأسماء وعائشة بنتى أبى بكر الصديق ، أول الخلفاء الراشدين .

لقد غبرت تلك العصور ، وترادفت أجيال ، وغدا هذا الفن الجميل مجلى من مجالى الثقافة والحضارة فى بلاد الغرب ، وقد ازدهر عند الفرنسيين فى عصور النهضة والتجديد بمجلس المترفات من المثقفات

أمثال : دو سافينبي ، ودوستال ومدام روكاميه اللائى كن يستقبلن فى أبهائهن أعلام الأدب والفلسفة .

أما فى مصر فقد نسى كتابنا وأدباؤنا أول زعيمة اجتماعية ، وأول امرأة مثقفة فى مصر فى القرن الثامن عشر ، كان قصرها الكائن فى درب عبد الحق ، بمثابة صالون من الطراز العصرى مع الفارق ، من حيث اختلاف البيئة والظروف الاجتماعية ، ومجالات الفكر والثقافة فى عصر السيدة نفيسة المرادية .

وقبل أن يعرف صالون الأميرة نازلى فاضل الذى كان يقع خلف قصر عابدين ، وصالون الأديبة الكبيرة الآنسة مى الذى لا يمكن نسيانه ، لما كان له من أثر عظيم فى حياتنا الأدبية والفكرية ، حيث كان يجتمع به صفوة من أئمة الثقافة والأدب وأعلام الصحافة والفلسفة فى مصر ، ظهر الصالون الأول فى قصر ملكة مصر غير المتوجة ، وزوجة الحاكمين الكبيرين على بك ومراد بك ، الذى كان يقع على ميدان الأزبكية ، أبهى وأروع ميادين القاهرة فى عهدها .

وقد ذكر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى الجزء الأول من كتابه « الحركة القومية وتاريخها فى مصر » ص ٢١٦ « أنها كانت على جانب كبير من التثقيف والتهذيب ، وقد أتقنت العربية قراءة وكتابة ، واطلعت على أمهات الكتب الأدبية والعلمية ودرستها دراسة واعية ، فارتقت مداركها واكتسبت احترام العلماء والبكوات المماليك الذين كان بيدهم الحل والعقد » .

وكثيرا ما كانوا يجتمعون بقصرها فى دراسة شئون البلاد والظروف

السياسية القائمة ، لا سيما فى عهد الحملة الفرنسية ، حيث ساد البلاد نشاط وطنى ثورى ، لمكافحة المستعمر ومقاومته .

ولم يصلنا من مؤرخى العصر ، عن هذا الصالون إلا معلومات قليلة ، لما اكتنف هذا العهد من اضطرابات جمة فى جميع مرافق البلاد ، وثورة الشعب ضد الحكم الفرنسى ، وضد المظالم التى حاقت بالأهالى من جراء فرض الضرائب والغرامات ، واستخدام أبشع الوسائل فى تحصيلها .

وقد ذكر مؤرخو الحملة الفرنسية أن السيدة نفيسة أقامت يوما مأد بة فخمة فى قصرها ، ودعت إليها أقطاب الحملة الفرنسية ورجال حاشية نابليون ، وذلك فى سبيل مصلحة البلاد ، وتخفيف المظالم ، وعند انصرافهم بعثت معهم بخاتم ثمين مرصع بالجواهر هدية إلى أوجن بوهارنيه ابن زوجة جوزفين زوجة نابليون (وذلك قبل أن تصبح امبراطورة) .

وإقامة هذه المأدبة ، يدل على أن السيدة نفيسة ، كانت سيدة مجتمع من الطراز الممتاز ، وكان لا بد لها من الإلهام بعادات وأساليب اجتماعية معينة ، حتى تستطيع أن تقيم هذه المأدبة لعدد كبير من الفرنسيين الذين لهم ثقافة خاصة وعادات معينة .

كما وكان أمراء المماليك يجتمعون فى قصرها فى عهد مراد بك ، وكانت لها منزلة كبيرة فى نفوسهم ، ولم يكن السائد فى هذه الاجتماعات إلا الطابع السياسى ، فكانوا يجتمعون بها للمشاورة فى شتى الظروف السياسية ، وكانت تنمى فى نفوسهم الاتجاهات الوطنية والإنسانية وتحثهم على رعاية حقوق المواطنين ومعاملتهم بمبادئ العدل والر

وعدم إيذائهم فى أملاكهم وأرواحهم ، حاضة إياهم على النهج السوى فى الحكم .

ولأول مرة فى تاريخ مصر الحديث ، يجتمع الحكام وقادة الرأى والعلماء فى قصر امرأة مصرية يتحدثون فى أمور جادة وعلى مستوى ممتاز .

ولقد أهداها فى أحد الاجتماعات كبير أطباء الحملة الفرنسية الدكتور دى جنت Des genette ، فى إيطاليا ومصر ، وصاحب الأبحاث الطبية عن الأحوال الصحية فى مصر خمسين نسخة من كتاب ألفه باللغة العربية فى مرض الجدرى ، وطبع بالمطبعة الأميرية . وقد أشار المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى إلى ذلك فى مذكراته فى شعبان ١٢١٥ هـ وفى هذا ما يدل على التقدير والتكريم لشخصية هذه المرأة المثقفة الكبيرة .

ولقد ضن علينا المؤرخ بما يشفى غليلنا عن هذا الصالون الاجتماعى الأول ، وعن الاجتماعات العديدة التى انعقد فيها ، وهذا أمر يدعو إلى الغرابة والاستفهام ، ربما لأن العرف والتقاليد فى تلك الأيام تمنع من الاسترسال فى الحديث عن المرأة أيا كان مركزها ، وأيا كان نفوذها وشخصيتها !!

المرأة التى جابت سيرتها الآفاق ، حتى أصبحت حديث نساء السلطان العثمانى فى اسطنبول ، وتحدث عنها الرحالة الذين زاروا مصر وسجلوا ما شاهدوه فى كتبهم لا نجد من الجبرتى المؤرخ المعاصر لها ، إلا سطورا قليلة فى مرات متفرقة تعد على الأصابع .

أم المماليك

من هذه المرأة النبيلة ذات الوجه الملائكى ، الجميل السمات ،.. البارع القسمات ، التى وإن بلغت من العمر أكثر من الحلقة الرابعة ، بل تقدمتها إلى الخامسة ، ولكن لم تفارق وجهها ملاحة الصبا ، وفتنة الشباب ، ورواء المنظر ، وبضاضة الأطراف وروعة المحيا ، ونبل الإيماءات .... مما ينم عن عز أثيل ... وماض جليل ، وحاضر عامر بالمفاخر ، مزدان بقلائد الفضل ... نعم ولا عجب ... فقد كانت من أجمل نساء عصرها ... وأشقى امرأة كذلك ... أما جمالها فحسبه أن كان سببا ولو غير مباشر لمصرع زوجها العظيم على بك ، لأن مراد بك مملوكه أيد محمد بك أبو الذهب فى خيانته لسيده مقابل أن ينال أجر هذه الخيانة ، وكان الأجر أن يتزوج نفيسة هانم زوجة سيده ... وهكذا شاءت الأقدار ... أن يفرض عليها الزواج بمراد بك وهو ما هو ... فهو شخصية بغيضة ، لم يذكر لها التاريخ شيئا حسنا ، على النقيض من على بك صاحب المآثر والمفاخر الجمة .

أما شقاؤها ... رغم غناها ... وعزها الباذخ ، فلأنها تضم بين جوانحها قلبا يفيض أسى وحزنا للأحداث الدامية التى حفل بها عهدها ... رجال ونساء ... شيب وشباب ، فى ميعة الصبا ورونق الحياة ... يذهبون إلى غير رجعة ... وشعب يصفق للدماء تجرى هنا وهناك ... فى جو ملىء بالمؤامرات والدسائس والخيانات .

أية نفوس تلك التى خلت من معانى الرحمة ، وأية قلوب تلك التى تحجرت فلا ينبض فيها عرق بعاطفة ، وأية عقول تلك التى أذهلتها القسوة فلا تصغى لصوت برىء ، ولا تحفل بشكاة مظلوم ... هكذا كانت تحدث نفيسة المرادية نفسها بهذا كله ... وذكريات حياتها الطويلة مليئة بالمآسى والفواجع التى وقعت على هذا الشعب ...

فئة ظالمة تلهو بضحاياها من سكان البلاد الآمنين ، كما يلهو عالم التشريح بحيوان بائس ... ولكم ودت أن تفر من هذا العذاب إلى بلد آخر تنعم فيه بالهدوء والصفاء والأمن ... ولكن أنَّى لها ذلك ، وهى زوجة الحاكم الأعلى للبلاد مراد بك ، وقد فرض عليها هذا المركز ، مع ما فطر عليه قلبها من حب وعطف لهذا الشعب ، ومع ما اشتهرت به فى عهده من لقب عزيز ... يوضح مواهبها العديدة ، وينم عن باقة غالية من أسمى العواطف وأزكاها ... وهو لقب « **أم المماليك** »... لذلك لم يكن هناك مفر إلا أن تبقى لتكون الموئل والملاذ للجميع ... حكاما ومحكومين ؟

إن لقب « أم المماليك » .. قد ينظر إلى معناه ، فيما يشبه التناقض لأن الأمومة فى عهد المماليك معناها الرحمة ، ولأن ما شاب عهد المماليك من قسوة ومظالم ، وما أورثنا إياه حكام بيت محمد على ، أن لفظ المماليك مرادف لجميع أنواع المظالم ، وفى الحقيقة لم يكن حكم المماليك ظلما كله ، كما لم يكن عهد محمد على ولا عهد الحكام من أسرته خيراً كله ، بل كانت مظالمهم فى أحوال كبيرة لا تقل عن المظالم فى عهد المماليك .

فكيف تجمع المرادية بلقب الأم ... والمماليك ، وكان يمكن أن تلقب بالأم وكفى ... وهذا يعنى الشمول والتعميم ، بدلا من تحديد أمومتها

للمماليك فقط ، ولكنها كانت فى الحقيقة أم المصريين جميعا ... الأم الأولى فى مصر . ولأن الطبقة الحاكمة من أمراء المماليك كانوا يعتزون بها ويجلونها ، نظرا لمكانتها الأدبية باعتبارها زوجة على بك الكبير وزوجة مراد بك من بعده ، ولأن أغلب زوجات الأمراء من جواريها ، فكانوا يتهافتون على تكريمها ، والاستعانة برأيها فى كل ما يعن لهم من مشكلات ، ويعتبرونها أمهم جميعا ، لذلك لقبت فى عهدها « بأم المماليك » . وكان هناك تقليد عام ، بأن أى مملوك يسند إليه منصب هام مثل منصب سنجق أو حاكم لإقليم ، كان عليه زيارتها قبل أن يسافر لاستلامه مقاليد منصبه ، وكانت تقدر هذه الزيارات حق قدرها ، لأنها فى أثناء هذه الزيارة ، يدور الحديث مع المملوك الذى تولى الوظيفة القيادية الكبيرة ، فى شئون عمله المستقبلى ، وخصائص الإقليم الذى سيتولى حكمه .

وقد ذكر الرحالة براون Browne الذى زار مصر سنة ١٧٩٨ .

« إن أم المماليك وهى زوجة على بك من قبل ، كانت موضع احترام المماليك جميعا ، يتشرفون بزيارتها كلما تولوا منصبا من المناصب فتزودهم بالنصائح الثمينة قائلة :

« إياكم واغتصاب حقوق الشعب ، فإن زوجى كان دائما يرعاها حق رعايتها » وقد اتفق المؤرخون والرحالة الأجانب الذين زاروا مصر فى عهدها ، على أنها اكتسبت احترام المماليك ، وكانت تلقب بهذا اللقب ، ومنهم الرحالة سافارى الذى زار مصر فى سنة ١٧٧٩ ، والرحالة لوزينيان الذى زار مصر فى سنة ١٧٧٢ »

وإذا كانت مصر تحتفل فى عهدها الحديث بعيد الأم ، فجدير بها أن

تخلد ذكر أول امرأة فى مصر لقبت بالأم ولم يكن لها ولد ، قبل أن يوافق الكونجرس الأمريكى على اقتراح السيدة الأمريكية مارى جارفت باعتبار عيد الأم عيدا قوميا فى مارس سنة ١٨٢٠ ، وقد انتشر التقليد الأمريكى فى شتى الأنحاء فى جميع الأمم .

كان المصريون وحكامهم أبناءها ، وقد استحقت عن جدارة واستحقاق هذا اللقب ، فقد كانت الملاذ للمظلومين والمقهورين ، والمحسن للفقراء والبائسين ، .. بل كانت أعطف امرأة عاشت على أديم هذا الوادى (منذ قرنين من الزمان) على أبناء مصر ...

ففى أثناء الحملة الفرنسية ، فتحت السيدة نفيسة أبواب بيتها لكل طارق وطارقة من أفراد شعب مصر ، ومدت يد المساعدة للأسر الكادحة فى الأحياء القاصية تساعدها . وقد عمت البلايا ونزلت الخسائر بالناس كافة، مع متباين طبقاتهم، من تركهم صناعاتهم وتجاراتهم ليقوموا بأداء الواجب الوطنى فى مواجهة الاحتلال ، وتعددت الثورات فى القاهرة ضد الفرنسيين ، وكذلك فى غيرها من بلدان القطر ، وراح الحاكم الفرنسى فى كل مكان تشب فيه ثورة للشعب ، بفرض الغرامات الباهظة التى أثقلت كواهل الناس وعرضتهم للإهانات والإيذاء ، فكانوا يهرعون إلى سيدة البر يسألونها العون حينما تفرض عليهم الغرامات الكبيرة ، فتدفعها عنهم من مالها الخاص .

كما فتحت نفيسة هانم أبوابها لكل قاصد وصاحب مكانة من أعلام حملة بونابرت ، خاصة علماء الآثار والتاريخ وكبار الأطباء ، كلما كان ذلك لصالح الوطن .

ولما بدأت أحداث المقاومة تشتد ضد المحتلين ، ركب جنرالات نابليون رؤوسهم واشتطوا فى فرض الغرامات على التجار من الأثرياء ، ثم اتجهت أبصارهم إلى نساء المماليك اللاتى فر أزواجهن البكوات من مصر ، ورحلوا للصعيد مع زعيمهم الكبير مراد بك ، ظنا منهم أنهن من الثراء بحيث يستطعن دفع ما يفرض عليهن ، وأن كلا منهن لا تقل فى ثرائها عن ثراء نفيسة هانم ، ولكنهن عجزن عن دفع الغرامات التى فرضت عليهن ظلما وبلا حق ، فتحملتها عنهن نفيسة هانم ودفعتها نيابة عنهن ، وحمتهن من تعريض الفرنسيين بهن وطردهن من مساكنهن .

المرادية وخورشيد باشا

جلا الفرنسيون عن مصر بعد احتلال دام ثلاثة أعوام وشهرين ، فتنازع السلطة فى البلاد ثلاث قوات مختلفة المصالح ، متباينة الأغراض ، اتحدت وقتا ما على محاربة الفرنسيين ولما تم لها النصر عليهم ، بدأت كل قوة تعمل على تحقيق أطماعها الخاصة فى وادى النيل ، هذه القوات الثلاث هى : الأتراك والإنجليز والمماليك .

تطلعت تركيا إلى بسط حكمها المطلق فى مصر بحجة أنها فتحتها بحد السيف وأرادت أن تجعل منها ولاية أو عدة ولايات تحكمها ، كما كانت تحكم ولايات السلطنة العثمانية بولاتها الذين لم تر البلاد منهم منذ عهد الفتح العثمانى سوى الظلم والفوضى وسوء الإدارة .

أما إنجلترا فكانت تطمع فى بسط نفوذها فى وادى النيل ، وتحتل بعض المواقع المهمة على شواطئه فى البحر الأبيض والبحر الأحمر ، لتضمن لنفسها السيادة فى البحار ومراقبة طريقها إلى الهند . وكان الجيش الإنجليزى فى مصر مؤلفا من ١٦ ألف مقاتل بقيادة الجنرال هتشنسون يحتلون الإسكندرية ورشيد ودمنهور ، ويلحق به الجيش الذى قدم من الهند بقيادة الجنرال بيرد Baird وعدده نحو ستة آلاف مقاتل معسكرين فى الجيزة . وهذه القوات جميعها جاءت إلى مصر لمساعدة الجيش العثمانى فى إجلاء الفرنسيين عن مصر .

أما المماليك ، فقد كانوا يطمعون بعد انتهاء الحملة الفرنسية فى

استعادة حكمهم فى مصر ، وحجتهم أنهم حكامها الأقدمون الذين دانت لهم البلاد السنين الطوال ، وقد فطنوا إلى أن الأتراك يأتمرون بهم ويريدون التخلص منهم ، فاتجهوا إلى لإنجليز يطلبون حمايتهم .. ويستمدون منهم المعونة لتحقيق أطماعهم ، ولكن خابت آمالهم فى الإنجليز بعد ما تم جلاؤهم عن مصر ، وحاول أحد أمرائهم محمد بك الألفى الاستعانة بالإنجليز رسميا ، وسافر إلى إنجلترا لهذا الغرض وقابل الملك جورج الثالث ، وطلب منه حماية المماليك رسميا واحتلال الثغور المصرية ، وذلك فى أكتوبر سنة ١٨٠٣ ، ولما كانت إنجلترا وقتئذ تسعى فى كسب ثقة تركيا لتحول بينها وبين صداقة فرنسا فلم تشأ أن تغضب الحكومة التركية بإعلان حمايتها للمماليك ، وأهملت شأن الألفى زمنا ما ، لكنها ما لبثت أن غيرت خطتها حياله وأخذت توجه إليه التفاتها ، ذلك حين تواترت الأنباء الواردة من مصر بفوز المماليك واستيلائهم على الحكم ، وتضعضع نفوذ الترك فى مصر ، فكتبت وزارة الخارجية البريطانية إلى محمد بك الألفى بتاريخ ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٣ رسالة وعدته فيها بالسعى بواسطة سفيرها فى الآستانة للتوفيق بين الباب العالى والمماليك ، وأن تعمل كذلك على حماية مصالح البكوات فى مصر على قاعدة المزايا التى كانوا يتمتعون بها قبل الحملة الفرنسية .

برت الحكومة الإنجليزية بوعدها للألفى ، وأرسلت إلى القائم بأعمال سفارتها بالآستانة مذكرة بوجهة نظرها ليفضى بفحواها إلى الباب العالى ، أعربت فيها عن رغبتها فى توطيد النظام والسكينة فى مصر ، ونوهت بما بذلته من الجهود فى سبيل إخراج الفرنسيين منها وما أداه

المماليك من الخدمات للجيش الإنجليزى بها ، وأن هذه الخدمات تخول لهم الحق فى استرداد امتيازاتهم القديمة فى مصر ، وطلبت من الباب العالى تسوية علاقته بالمماليك على قاعدة اعترافهم بسيادة تركيا وأدائهم الجزية السنوية لها فى مقابل استرجاعهم زمام الحكم .

ولكن إنجلترا خفقت فى مسعاها بالآستانة ، ولو أنها نجحت لعادت مصر مرة أخرى إلى أيدى المماليك ، ولصارت على يدهم إلى الحماية البريطانية .

* * *

تقلد الولاية على مصر من الحكام الأتراك بعد جلاء الفرنسيين ، محمد خسرو باشا وقد خلع ، ثم طاهر باشا وقد قتل ، ثم أحمد باشا وقد طرد ، ثم على باشا الجزايرلى وقد قتل ، ثم تم تعيين خورشيد باشا الذى كان محافظا للإسكندرية . واليا على مصر فى مارس سنة ١٨٠٤ .

كان خورشيد باشا سيئ الرأى ، فاسد التدبير ، ميالا إلى الظلم ، غير مكترث بميول الشعب ، معتمدا على القوة الغشوم ، سكن القلعة من اليوم التاسع من صفر سنة ١٢١٩ هـ ٢٠ من مايو سنة ١٨٠٤ م ، فكان انتقاله إليها نذيرا بالتجائه إلى القوة المسلحة فى إخضاع مدينة القاهرة الثائرة بعد أن تعددت مظالمه ، واضطراب حبل الأمن واعتداء الجنود على الأهالى ، وقد تدخل العلماء لرفع المظالم عن كاهل الشعب ، ومن أجل هذا ، عظم نفوذهم فكانوا موئل الشعب يفزع إليهم فى الملمات . وكانت مساوئ خورشيد باشا هى الباعثة على ذلك ، ففى عهده قوى سلطان العلماء ، وبلغ نفوذهم أقصى مداه ، حتى أثاروا الشعب واقتلعوا بقوته

الوالى عن كرسى ولايته وأجلسوا (محمد على) مكانه، ولم يسبق لهم هذا النفوذ من قبل، كما لم يخلص لهم مثله بعد انقضاء هذا العصر.

وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى فى الجزء الرابع من كتابه، ما كان من خورشيد باشا، واعتقاله[1] السيدة نفيسة المرادية وغيرها من نساء المماليك، وأمره بإحضارها إلى القلعة، واتهامها ظلما بأن جارية لها تسعى فى الاتفاق مع المماليك العصاة لتحريض الجند على التمرد.

وقال الجبرتى[2]:

إنه لما شاع الخبر، تغيرت خواطر الناس، وركب القاضى، ونقيب الأشراف السيد عمر مكرم[3]، والشيخ محمد السادات، والشيخ محمد

---

(١) من حوادث اليوم الحادى عشر من شهر رجب ١٢١٩ هـ.

(٢) تاريخ الجبرتى الجزء الرابع.

(٣) السيد عمر مكرم، هو أكبر شخصية ظهرت بين رجالات مصر فى فجر النهضة القومية. كان أكبر زعماء الشعب نفسا، وأعظمهم نفوذا، وأرفعهم كلمة، فلا غرو أن عده المؤرخون زعيم الزعماء ورئيس الرؤساء، كان نقيبا للأشراف فى مصر قبل مجىء الحملة الفرنسية. ولما هزم المماليك فى معركة الأهرام، حاول الفرنسيون ضمه إليهم، واختاروه عضوا بالديوان الأول، ولكنه رفض العضوية، وهاجر إلى سوريا، وأقام فى مدينة يافا كمنفى له، ولما احتل نابليون يافا، أمر بإرجاعه معززا مكرما، فعاد إلى مصر ولكنه اعتزل الفرنسيين، ثم هاجر من مصر مرة أخرى بعد أن أخمد الفرنسيون ثورة القاهرة الثانية، وكان من زعمائها. ثم عاد إلى مصر بعد جلاء الفرنسيين، فزادت مكانته فى قلوب الشعب، وعادت إليه نقابة الأشراف، وكانت له اليد الطولى فى ثورات الشعب ضد المماليك عام ١٨٠٤ وضد الوالى التركى عام ١٨٠٥، وكان معدودا زعيما قوميا كبيرا قام بخلع خورشيد باشا من الولاية وتولية محمد على باشا.

الأمير[١] ، وذهبوا إلى الباشا وتحدثوا إليه فى شأنها ، وفى التهم التى ألحقها بها ، من اتصالها ببعض كبار رؤساء الجند تستميلهم إلى المماليك وأنها وعدتهم بدفع رواتبهم . وقال خورشيد باشا : إنها ما دامت تستطيع أن تدفع للجند رواتبهم فينبغى أن تدفعها لخزانة الحكومة .

واتضح أن غرضه من ذلك إرهاق السيدة نفيسة وإبتزاز المال منها قهرا .

فقال الشيوخ : إن الأمر يحتاج إلى تحقيق ، وقام الشيخ سليمان الفيومى[٢] والشيخ محمد المهدى وخاطبا الست نفيسة فى ذلك ، فأنكرت ما نسب إليها وقالت :

« إذا كان قصده مصادرة أموالى فلم يبق عندى شىء » .

---

(١) الشيخ محمد الأمير ، من كبار العلماء . ولد فى صنبو مركز ديروط سنة ١١٥٤ هـ وتخرج من الأزهر ، ودرس علوم الهيئة والهندسة ، كما تضلع فى علوم الأدب والفقه ، وله مؤلفات عديدة ، اشتهر ذكره فى مصر ومختلف أنحاء المشرق ، وكانت تأتيه الصلات من سلطان المغرب الأقصى وانتخب عضوا بالديوان فى عهد الحملة الفرنسية (نابليون ثم مينو) واعتقله الفرنسيون بالقلعة فى شهر مايو سنة ١٨٠١ م واشتهر بالشجاعة والجرأة فى الحق .

(٢) الشيخ سليمان الفيومى : تلقى العلوم بالأزهر ، وكانت له مكانة كبيرة بين الناس بما اشتهر عنه من الكرم والجود وخدمة المظلومين فى قضاء حوائجهم ، انتخب عضوا بالديوان فى عهد نابليون ، ثم فى عهد الجنرال مينو ، وكان من الأعضاء النابهين ، ونال احترام أمراء المماليك ونسائهم بما اشتهر عنه من شهامة ومكارم الأخلاق والتورع . وله مواقف تاريخية مشهورة تدل على الشهامة والمروءة . وفى عهد الجنرال مينو تكونت لجنة لتعيين مشايخ البلاد (العمد) وجعلوا لها رئيسين أحدهما فرنسى (مسيو بريزون) والآخر الشيخ سليمان الفيومى فكان كما يقول الجبرتى (شيخ المشايخ)

فاعترض الشيوخ على خورشيد باشا ، وحدث أخذ ورد بينهم .

وقال الشيخ الأمير غاضبا :

« إن هذا أمر غير مناسب ، ويترتب عليه مفاسد ، ويقع اللوم علينا ، فإذا كان الأمر كذلك فلا علاقة لنا بشيء من هذا الوقت أو نخرج من هذا البلد (ومعنى ذلك أن الشيخ الأمير يهدد الوالى بمقاطعة الشيوخ له ، وهذا أمر له عواقبه) .

وفى أثناء هذه المناقشة الحامية ، خاطبت السيدة نفيسة خورشيد باشا بكل أنفة وإباء ، طالبة الدليل على ما نسب إلى جاريتها وقالت :

« إذا ثبت أن جاريتى قالت ذلك فأنا المأخوذة به دونها » .

فأخرج خورشيد باشا ورقة من جيبه ، وتظاهر بأنها تثبت ذلك ، فطلبت السيدة نفيسة الورقة ، ولكنه أعادها إلى جيبه ، فوبخته نفيسة على عمله ، وقالت له بانفعال وشجاعة « طول ما عشت بمصر وقدرى معلوم عند الأكابر وخلافهم ، والسلطان ورجال الدولة ، وحريمهم يعرفونى أكثر من معرفتى بك ، ولقد مرت بنا دولة الفرنسيس فما رأيت منهم إلا التكريم ، وكذلك محمد باشا (خسرو) كان يعرفنى ويعرف قدرى ولم نر منه إلا المعروف ، وأما أنت فلم يوافق فعلك فعل أهل دولتك ولا غيرهم » .

فقال : ونحن أيضا لا نقبل غير المناسب .

فقالت له : وأى مناسبة فى أخذك لى من بيتى بالوالى (رئيس الشرطة مثل أرباب الجرائم !!؟

فقال : أنا أرسلته لكونه أكبر أتباعى ، فإرساله من باب التعظيم

قال الجبرتى :

« ثم اعتذر إليها وأمرها بالتوجه إلى بيت الشيخ السحيمى بالقلعة ، وأجلسوها عنده بجماعة من العسكر » (أى جعلوها تحت الحفظ) ، فتدخل العلماء حتى توصلوا إلى إطلاق سراحها .

وقال عبد الرحمن الرافعى بك ، مؤرخ تاريخ الحركة القومية ، الجزء الأول :

« تبين ... من هذه الحادثة ، مقدار ما كان لنفيسة المرادية من المكانة بين الناس ، وكيف أن أعظم شخصيات فى الشعب ، وأكبر القادة والأعلام فى مجال الدين والعلم والأخلاق هبوا لنجدتها ، وسارعوا لحمايتها والدفاع عنها ، وتحدوا الوالى التركى الظالم ، وتحدثوا معه بشجاعة وحزم ، وطلبوا منه إطلاق سراحها ، حتى كان لهم ما أرادوا . وأطلق سراح المرأة العظيمة ، الشهيرة بمناقبها ومكارمها وحسن سيرتها ، وغامر أفضالها ، وكانت هذه الحادثة بالذات ، من أبشع أخطاء الوالى والتى أدت إلى خلعه » .

بدء ظهور محمد على باشا ووصوله للحكم

كان الوالى التركى على مصر بعد جلاء الفرنسيين عن مصر ، هو محمد خسرو باشا ، وكان يعتمد فى تأييد سلطته على الجيش التركى المؤلف من نحو سبعة عشر ألف مقاتل ، موزعين بين العاصمة والبنادر المهمة ، ومعظمهم من الجنود الألبانيين (الأرناؤود) وكان من رؤسائهم طاهر باشا وحسن باشا ومحمد على باشا ، على أن هذه السلطة لم تكن ثابتة وطيدة ، لأنها ترتكز على جيش لا نظام فيه، مؤلف من جنود ميالين إلى التمرد والعصيان .

وقد بدأ خسرو باشا حركاته الحربية بتجريد حملة على المماليك فى الصعيد للقضاء عليهم ، ولكن الحملة فشلت ومنيت بهزيمة الأتراك فى نجع حمادى ، وكان من أسباب الهزيمة كثرة المظالم التى ارتكبوها فى البلاد والغرامات التى فرضوها على الأهالى والنهب والتخريب ، فنفر منهم سكان الأرياف وانضموا إلى المماليك .

ثم زحف المماليك على الوجه البحرى وأنفذ إليهم خسرو باشا جيشين لمحاربتهم ، أولهما بقيادة يوسف كتخدا (وكيل الباشا) والآخر بقيادة محمد على باشا . وصل المماليك فى زحفهم إلى مديرية البحيرة وهجم جيش يوسف بك على المماليك بالقرب من دمنهور[1] ، فانتص

---

(١) فى ١٥ رجب سنة ١٢١٧ هـ ، ٢١ نوفمبر سنة ١٨٠٢ .

عليه البرديسى انتصارا عظيما مع قلة عدده بالنسبة لعدد الجنود العثمانية ، وكان جيش محمد على على مقربة من الواقعة ولكنه لم يحرك ساكنا لنجدة يوسف بك قائد الجيش الآخر ، وذلك أنه رأى من مصلحته أن يدع الترك والمماليك يتطاحنان فينفى بعضهم بعضا ، وبذلك تخلص البلاد من الفريقين ، ويتوصل هو بإرادة الشعب إلى الاستيلاء على زمام الحكم . وقد تحقق خسرو باشا أن (محمد على) تعمد الامتناع عن نجدة يوسف بك فأزمع التنكيل به سرا ، ومن هنا بدأ الصراع بينهما.....!!

ولما تم جلاء الجيش الإنجليزى عن البلاد فى (٢٢ ذى القعدة ١٢١٧ هـ) ونزل بصحبتهم محمد بك الألفى أقوى أمراء المماليك وجماعته ، تجدد الحرب بين المماليك والأتراك فى الوجه القبلى واستولى المماليك على المنيا ، فعزم خسرو باشا على تجريد جيش لمحاربتهم ، فاستدعى قوات طاهر باشا ومحمد على باشا ، فوصل الجيشان للقاهرة ودخل جنود طاهر باشا المدينة ، وبقى جنود محمد على فى ضواحيها ، ورأى محمد على الفرصة سانحة للتخلص من خسرو باشا ، فأوعز هو وطاهر إلى الجنود — ومعظمهم من الأرناؤود — بالمطالبة برواتبهم المتأخرة ، فسرعان ما لبوا الدعوة وتمردوا ، وخاصة حينما علموا بمشروع تجريدهم إلى الصعيد لمحاربة المماليك ، واشتعل القتال بين الجند المتمردين والعسكر الموالين لخسرو باشا ، وتمكن طاهر باشا وجنوده من الاستيلاء على القلعة ، وأخذوا يضربون قصر خسرو باشا بالمدافع ، وأصبحت المدينة فى قبضتهم ، فهرب خسرو باشا هو وعائلته وبقية من جنوده . وخرج من القاهرة واستقر بدمياط ، وأخذ يستعد لاسترجاع ولايته .

وبفراره انتهت ولايته الفعلية فكانت مدتها سنة وثلاثة شهور .

واجتمع المشايخ وكبار العلماء فى ١٤ محرم سنة ١٢١٨ هـ — ٦ مايو سنة ١٨٠٣ ، ببيت القاضى (دار المحكمة) وذهبوا صحبته إلى بيت محمد طاهر باشا وأعلنوا باختياره قائممقام ، إلى أن تحضر له الولاية[١] أو يعين وال آخر ، وطلبوا منه رفع المظالم التى كان الناس يشكون منها . على أن طاهر باشا لم يدم له الأمر ، فقد اشتهر بالظلم والجبروت وأطلق لجنوده الألبانيين عنان السلب والنهب وضرب الغرامات الفادحة على التجار ، وكان الجنود الإنكشارية الذين فى المدينة قد قاموا يطالبون برواتبهم المتأخرة ، مقتدين بالجنود الأرناؤود ، فرفض طاهر باشا طلبهم وظهر تحيزه إلى الأرناؤود وتحامله على الإنكشارية ، فلما كان يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٠٣ ، ذهب رهط منهم يبلغ عدده ٢٥٠ فى أسلحتهم بقيادة اثنين من زعمائهم ، وكلماه فى الشكوى من تأخير دفع الرواتب ، فانتهرهما ورفض سماع شكواهم ، فما كان من أحدهما إلا واستل سيفه وضرب طاهر باشا وقتله وأحرقوا داره ، فكانت مدة حكمه أياما معدودة .

قال الجبرتى[٢] :

« لو طال عمره أكثر من ذلك لأهلك الحرث والنسل » .

أصبح محمد على باشا بعد مقتل طاهر باشا هو قائد الجنود الألبانيين وعددهم ٤٠٠٠ مقاتل . فتحالف مع المماليك بقيادة زعيمهم إبراهيم

---

(١) يصدر له فرمان من السلطان العثمانى بتعيينه واليا رسميا .

(٢) ص ٣٦٩ تاريخ الحركة القومية . الجزء الثانى .

بك (شريك مراد بك سابقا فى الحكم) مؤقتا ، فقد رأى من مصلحته الاتفاق مع المماليك للتخلص من القوة التركية ، على أن يعود بعد ذلك فيتخلص من المماليك .

عينت الحكومة العثمانية بعد عزل خسرو باشا وفراره إلى دمياط ، ودخول البكوات المماليك القاهرة وعودة السلطة إليهم ، على باشا الجزائرلى واليا على مصر لاسترداد سلطتها ، ووصل الإسكندرية فى أوائل يوليو سنة ١٨٠٣ ومعه قوة من ألف جندى . وحدث صراع بينه وبين المماليك الذين منعوه من التقدم إلى القاهرة وحاصروه فى الإسكندرية ، وبقى بها إلى أواخر سنة ١٨٠٣ ثم غادرها يوم ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٠٣ إلى القاهرة ليتقلد منصب الولاية وذلك بناء على دعوة من الأمراء المماليك ، تظاهروا فيها بالرغبة فى الوفاق ، ولكنهم دبروا مؤامرة لقتله فى الطريق .

كان فضل الجزائرلى باشا فيه القضاء على مظهر السلطة العثمانية فى مصر ، وكان محمد على هو الرأس المدبر للحملة على خسرو باشا وعلى على باشا الجزائرلى ، وبذلك تخلص محمد على من إحدى القوتين اللتين كان يعمل على سحقهما ، ولم يبق أمامه إلا قوة المماليك ، فبدأ يعمل على التخلص منها .

وعاد محمد بك الألفى من إنجلترا بعد فشل مفاوضاته مع الحكومة الإنجليزية ، وقام صراع بينه وبين عثمان بك البرديسى على السلطة ، وقد داخل الأخير الخوف من أن يرى الألفى ينافسه النفوذ والسلطة مؤيدا من إحدى الدول العظمى ، فأنفذ رجاله للقبض على الألفى وقتله ، وكاد

الألفى أن يقع فى الشرك لولا أن لجأ إلى الاختفاء ثم الفرار إلى الصعيد ، وبذلك نجا بنفسه من الاغتيال . وبذلك تخلص عثمان بك البرديسى من منافسه وزميله القديم محمد بك الألفى ، وأمن على سلطته فى الحكم .

واجتازت القاهرة خلال عام ١٨٠٣ حالة من التذمر بين أفراد الشعب من كثرة وقوع المظالم وإرهاقه بمختلف الضرائب والمغارم ، وزاد من سوء الحالة نقص مياه النيل فى تلك السنة (أغسطس سنة ١٨٠٣) ، فأثر هذا النقص على حالة الزراعة ، واشتد الغلاء ، كما زاد اعتداء المماليك والجنود الألبانيين على ما بأيدى الناس من الأموال والغلال والمتاع ، فشكا الناس فى نوفمبر سنة ١٨٠٣ إلى كبار العلماء ، فذهب السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الأمير إلى البكوات المماليك وطلبوا إليهم منع اعتداء العساكر على الناس .

وعمت الثورة فى أنحاء البلاد ضد مظالم المماليك ، وامتنع الناس عن دفع المطلوب منهم من ضرائب ، واشتد سخطهم وعلا صياحهم واحتشدوا يوم ٢٥ ذى القعدة سنة ١٢١٨ هـ وجاهروا باستنكار هذه المظالم وامتناعهم عن دفع الضرائب .

وفى إبان هذه الثورة جاهر محمد على بإنضمامه إلى العلماء والمشايخ ، ونزل فى الشوارع واختلط بالجماهير الصاخبة ، وقابل علماء الأزهر وتعهد لهم بأن يبذل نفوذه لرفع الضرائب المفروضة ظلما وبلا حق ، وكسب محمد على بهذه السياسة الحكيمة عطف الشعب وثقة زعمائه ، وبدأ الناس ينظرون إليه كرجل عادل يكره الظلم ويحب خير الشعب .

أما عثمان بك البرديسى فقد قابل هذه الثورة بالغطرسة والكبرياء ،

ونقم على المصريين قيامهم فى وجهه وخروجهم على حكمه .

وأخذ المماليك يستعدون لمقاومة الثورة ، ويجمعون جموعهم ويستدعون رجالهم الذين كانوا موزعين فى الأقاليم ، ولكنهم أبطأوا فى الحضور ، لانهماكهم فى نهب القرى ، فانتهز محمد على باشا فرصة غضب الشعب على المماليك ، فأمر جنوده فهاجموا[1] المماليك الموجودين بالقاهرة ، وحاصروا بيت إبراهيم بك ببركة الفيل وبيت عثمان بك البرديسى بالناصرية وبيوت باقى المماليك فى أنحاء العاصمة ، واستمر الحصار إلى اليوم التالى .

وقتل من المماليك وأجنادهم فى ذلك اليوم نحو ثلثمائة وخمسين ، وارتحل الباقون منهم عن المدينة ، وانتقض الشعب فى رشيد ودمياط وسائر العواصم على الحكام المماليك ، فهربوا إلى الصعيد ودالت دولتهم وانقضى حكمهم من البلاد ، ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

* * *

(١) يوم ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢١٨ — ١١ مارس سنة ١٨٠٤ .

ثورة الشعب على الوالى التركى

مايو سنة ١٨٠٥

كانت الفرصة سانحة ليحقق محمد على آماله ويتولى سلطة الحكم فى مصر ، ولكنه رأى ألا يصل إلى سلطة الحكم بقوة الجند ، وآثر أن ينتظر حتى يصل إلى تلك الغاية بإرادة الشعب ، وبذلك يثبت أنه لم يناوئ المماليك لمطامع شخصية ، بل لمحض الصالح العام فيزداد الشعب تعلقا به . لذلك سعى فى تعيين خورشيد باشا محافظ الإسكندرية[1] واليا على مصر وقد سردنا طرفا من أحداث ولايته فى الباب الخاص (بنفيسة المرادية وخورشيد باشا) ، واستمرت فى عهده الحرب سجالا بين المماليك وجنود الوالى ومحمد على باشا عدة أشهر ، إلى أن ارتدوا عن القاهرة ، وكان فيضان النيل من أسباب ارتدادهم ، لأن المياه غمرت البلاد التى كانوا مرابطين فيها ، فاضطروا إلى الرحيل عنها وانسحبوا ثانية إلى الصعيد .

وفى أثناء ذلك أخذ خورشيد باشا يدبر الوسائل للتخلص من محمد على ، فاستصدر فرمانا بعودة الألبانيين ورؤسائهم إلى بلادهم ، فأدرك محمد على أنه المقصود بإبعاده عن مصر ، فتظاهر بالإذعان وأعد عدته

---

(١) كان محافظا على الإسكندرية منذ شهر ذى الحجة سنة ١٢١٦ فى عهد ولاية خسرو باشا ، ووصل إلى بولاق ومنها للقاهرة لتقلد الولاية فى أواخر مارس سنة ١٩٠٤

للرحيل ، بيد أن العلماء لما علموا بأمر هذا الفرمان طلبوا إلى محمد على البقاء بمصر لما عهدوه فيه من العدل والاستقامة ، وردع الجنود عن الاعتداء على الأهالى ، واضطربت القاهرة لنبأ هذا الرحيل ، وأقفلت الأسواق وكاد حبل الأمن يضطرب ، فقبل محمد على باشا العدول عن السفر ، وأعلن بقاءه إرضاء للرأى العام ، فلما تحقق خورشيد باشا من عدول محمدعلى عن السفر أدرك أن مكيدته قد أخفقت واضطر إلى الاعتراف بالأمر الواقع والاستعانة بمحمد على فى محاربة المماليك بالصعيد ، ورأى فى تكليفه بهذه المهمة ذريعة لإبعاده مع جنوده عن القاهرة .

فرض خورشيد باشا فى مايو سنة ١٨٠٤ أتاوة جديدة على أرباب الحرف والصنائع ، فضجوا منها لما كانوا فيه من الضيق وسوء الحال ، وأقفلوا حوانيتهم ، وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء ، وكان إقفال الحوانيت من نذر الثورة على الحاكم ، وظلت الخواطر فى هياج ، وفى يوم الاثنين الموافق ١٨ صفر سنة ١٢١٩ هـ ، ٢٩ مايو سنة ١٨٠٤ م اشتد الهياج وأقفلت جميع المتاجر ، واحتشدت جماهير الصناع وأرباب الحرف ، والجماهير ، بالأزهر ومعهم الطبول . فأرسل خورشيد باشا إلى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف رسولا ينبئه فيه بأنه رفع الأتاوة عن الفقراء منهم ويطلب منه فض الجماهير ، فقال السيد عمر مكرم : « إن هؤلاء الناس وأرباب الحرف والصنائع كلهم فقراء ، وما كفاهم فيه من الكساد وسوء الحال حتى تطلبون منهم مغارم لرواتب العسكر » . ومعنى هذا أن السيد عمر مكرم طلب رفع الأتاوة عن الجميع ، واضطر الوالى بعد ذلك إلى رفع الأتاوة فى ذلك اليوم .

وكان جيش الدلاة الذى جلبه خورشيد باشا مؤلفا من ثلاثة آلاف مقاتل ، من أردأ عناصر السلطة العثمانية ، فأخذوا يعيثون فى الأرض فسادا ويرتكبون الجرائم وكافة المحظورات .

وقال الجبرتى[١] :

« ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها ، وكانوا إذا سكنوا دارا أخربوها وكسروا أخشابها وأحرقوها لوقودهم ، فإذا صارت خرابا تركوها وطلبوا غيرها ، ففعلوا بها كذلك ، وهذا دأبهم من حين قدومهم إلى مصر ، حتى عم الخراب سائر النواحى وخصوصا بيوت الأمراء والأعيان وباقى دور بركة الفيل وما حولها من بيوت الأكابر وقصورهم » .

وقعت هذه المظالم وترادف اعتداء الجنود الدلاة ، واضطر الوالى إلى الإغضاء عن سيئاتهم ليستعين بهم على محاربة محمد على ، ومد لهم فى حبل السلب والنهب .

وقد سعى خورشيد فى استمالة العلماء إليه ولكنه أخفق فى مسعاه .

وفى يوم الأربعاء أول مايو سنة ١٨٠٥ اعتدى الجنود الدلاة على أهالى مصر القديمة وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وأمتعتهم وقتلوا بعض الأهالى ، فعظم الهياج فى مصر القديمة ، وانتشر خبر الاعتداء والهياج بسرعة البرق فى أنحاء المدينة ، واجتمع العلماء وذهبوا إلى الوالى ، ولكن مخاطبتهم للوالى لم تكن ذات فائدة ، واستمر الهياج والاضطراب فى

---

(١) الجبرتى ، الجزء الثالث .

شتى أنحاء العاصمة .

واستمرت القلاقل بالبلاد ، إلى أن انتهى الأمر بخلع خورشيد باشا والمناداة بمحمد على واليا على مصر فى ١٣ مايو سنة ١٨٠٥ ، حيث اجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع بدار المحكمة ، واحتشدت جماهير الشعب فى فناء المحكمة وحولها يؤيدون وكلاءهم ، وهناك اتفقت كلمة نواب الشعب وأجمعوا رأيهم على خلع خورشيد باشا وتعيين محمد على واليا بدله ، وانتقلوا إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم وأبلغوه ما اتفقوا عليه وقالوا[1]:

« إننا لا نريد هذا الباشا واليا علينا ، ولا بد من عزله من الولاية » .

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال :

« إننا خلعناه من الولاية » .

فقال محمد على : « ومن تريدونه واليا » ؟

فقال الجميع بصوت واحد : « لا نرضى إلا بك وتكون واليا بشروطنا توسمه فيك من العدالة والخير »

فأظهر محمد على ترددا وامتناعا حتى لا ينسب إليه أنه المحرض على ، الثورة ، وقال إنه لا يستحق هذا المنصب ، وإن هذا التعيين يمس ن السلطان ، فألح وكلاء الشعب عليه ، وقالوا جميعا قد اخترناك

---

(١) تاريخ الحركة القومية وتطور أنظمة الحكم فى مصر ، الجزء الثانى . لعبد الرحمن افعى .

برأى الجميع والكافة ، والعبرة برضاءأهل البلاد ، وأخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم .

فقبل محمد على مبايعة نواب الشعب ، وأمروا أن ينادى به فى أنحاء المدينة والياً لمصر .

المرادية ومحمد على باشا

استخدم محمد على باشا حيلته الواسعة فى إضعاف شوكة المماليك وتفريق شملهم ، ولقيت السيدة نفيسة المرادية كثيرا من الكوارث على يديه بعد أن توطد حكمه ، فقد صادر ما بقى لها من مال وعقار ، وصادر أملاكها الزراعية ، وعاشت بقية أيامها فى فقر وعسر . ولكنها تقبلت كل ذلك بثبات واستسلام لمشيئة الله ، ولم تفارقها مروءتها ولا شمم نفسها ، وظلت أبية ، شامخة النفس ، تساعد كل من يلجأ إليها ، ويحتاج إلى معونتها .

وقد روى الجبرتى عن موقفها من محمد على باشا ، حينما أمر نساء المماليك باستقبال زوجته أم ابنه إسماعيل حين وصولها إلى مصر مع كثير من أهلها وأهل زوجها قال :

« ففى صباح الأربعاء ١٦ من ربيع الثانى سنة ١٢٢٤ هـ ، وصلت زوجة محمد على ومعها ابنها إسماعيل ، وكان ابنها إبراهيم قد ذهب لملاقاتها فى الإسكندرية ، وعند وصولها القاهرة خرج محمد على لملاقاتها على ساحل بولاق ، وأمر نساء المماليك بالنزول لملاقاتها أيضا ، فذهبت منهن نحو خمسمائة سيدة يركبن الحمير ، غير أن السيدة نفيسة المرادية اعتذرت عن الذهاب لملاقاة محمد على متعللة بالمرض » .

ولكن يفهم من سياق ما ذكره الجبرتى بعد ذلك ، أن محمد على لم يقبل عذرها ، وأرغمها على النزول لملاقاة زوجه .

كان[١] محمد على رجلا واسع الحيلة شديد الغدر ، حين استتب له الأمر تنكر لوعوده التى وعد بها السيد / عمر مكرم حينما خلع عليه خلعة الولاية ، أن يسير فى حكمه بالعدالة وصيانة الحقوق ، ونفى صاحب الفضل عليه إلى دمياط ثم إلى طنطا ، ولم يسمح له بالعودة إلى القاهرة إلا بعد أن أصبح شيخا واهنا ، لا يخشى منه ولا يركن عليه .

ومن الحقائق التى سجلها الجبرتى عليه ، نظرته إلى المصريين كأنهم خدم له وأتباع ، وإلى مصر كأنها مزرعة ليس لأصحابها فيها حقوق ، ومظهر هذه النظرة ، نراه فى إهماله المصريين إهمالا شائنا معيبا ، فى كل ماله شأن أو خطر من أمور الدولة والحكم والولاية العامة ، واعتماده كل الاعتماد فى ذلك على الأجانب من كل صنف ، وخاصة الفرنسيين والأرمن .

وقد أوصى الإمبراطور نابليون قنصل فرنسا فى مصر ، بأن يرعى شئون السيدة نفيسة خصوصا بعد ما صودرت أموال المماليك ، وأن يقدم لها أى خدمة تحتاج إليها ، وأن يتدخل فى الأمر لدى محمد على باشا كلما لزم ذلك فى سبيل حمايتها من مظالمه وبطشه ، ولم تنسه مظاهر المجد ومشاغل الملك بعد ما تربع على عرش فرنسا أن يسأل عنها ويتسمع أخبارها ، ويوصى بها كل خير .

---

(١) مصر فى القرن الثامن عشر ، الجزء الثالث . لمحمود الشرقاوى .

المذبحة الرهيبة

لم تنل الحوادث والإحن من هذه المرأة الفذة في تاريخ الشرق مثلما نالت هذه المأساة الرهيبة التي حاقت بالمماليك في عهد محمد على باشا ، أعنى بها المؤامرة الخطيرة التي قضى بها على جميع أمراء وحكام المماليك ، بل تلك الجريمة الشنعاء التي لطخ بها محمد على جبين مجده ومجد ذريته من بعده

وكيف ننكر على هذه السيدة الرقيقة المشاعر ، النبيلة العواطف ، الكريمة الأحاسيس مدى العذاب الذى ألم بها ، والحسرة التى اعتصرت فؤادها ومشاعرها ، حينما سمعت بالهول الذى لقيه أبناؤها وغدر الحاكم الجديد بهم ، الذى ولاه الشعب بزعامة السيد عمر مكرم على البلاد ، وأخذوا عليه العهود والمواثيق بأن يحكم بالعدل وبمقتضى أحكام الشريعة .

وسنأتى فى السطور التالية بتفاصيل تلك المذبحة :

لما عاد محمد على من الوجه القبلى ، أخذ فى إعداد حملته العسكرية إلى الحجاز لإخضاع الوهابيين الذين ثاروا على حكم السلطان العثمانى ، وقد كلفته الحكومة التركية بالقيام بها ، وجعل يهيئ معدات الحملة بداءة عام ١٨١١ ، وقد عقد لواء قيادتها لابنه أحمد طوسون باشا ، وأعد حفلا كبيرا بمناسبة إلباس ابنه خلعة القيادة ، وحدد ميعادا لذلك الحفل ، يوم الجمعة الموافق أول مارس سنة ١٨١١ بالقلعة ، ودعا إلى هذا الحفل

رجال الدولة وأعيانها وكبار الموظفين العسكريين والملكيين لشهود ذلك الاحتفال الفخم .

وكان من الترتيبات التى وضعت لهذا الغرض ، أن يلبس طوسون باشا خلعة القيادة ثم ينزل من القلعة فى أبهته وموكبه ، مخترقا أهم شوارع المدينة إلى معسكر الحملة فى القبة ، وكان مثل هذا الاحتفال من المواكب الشهيرة التى تحتشد لها الجماهير ، وقد دعا الباشا جميع الأمراء والبكوات والكشاف المماليك وأتباعهم لحضور الحفل .

فعد المماليك هذه الدعوة من علامات الرضا من محمد على ،وركبوا جميعا فى أروع مظاهرهم وكبكبتهم ، وارتدوا أجمل وأثمن ما عندهم من ملابس ، وامتطوا صهوة جيادهم ، وذهبوا صبيحة هذا اليوم إلى القلعة قبل الموعد المضروب لركوب طوسون باشا .

وقبل ابتداء الحفلة ، دخل البكوات المماليك على محمد على فى قاعة الاستقبال الكبرى ، فتلقاهم بالبشر والاحتفاء ، والسرور والإيناس ، وقدمت لهم القهوة ، وشكرهم الباشا على إجابتهم دعوته ، وألمع إلى ما ينال ابنه من التكريم إذا ما ساروا فى موكبه فأجابوه بالشكر واعتذروا عن تخلف من إخوانهم الذين ما زالوا بالصعيد ، ولم تسعفهم الظروف بالحضور ، فقابل الباشا هذا الاعتذار بالتجاوز والإعراب عن تسامحه وحسن مقاصده للمتخلفين ، وتجاذب هو وضيوفه أطراف الحديث هنيهة !! ثم ما لبث أن أذن مؤذن الرحيل ، فقرعت الطبول ، وصدحت الموسيقى ، فكان ذلك إعلانا بالتأهب بتحرك الموكب ... وعندئذ نهض المماليك وقوفا ، وبادلوا الباشا وبادلهم عبارات التحية

والاحترام ، وغادروا القاعة الكبرى وساروا حيث يأخذون مكانهم المقرر لهم فى الموكب الفخم ، ولما تقلد الأمير طوسون اللواء ، بدأ الركب سيره منحدرا إلى القلعة .

تحرك الركب يتقدمه طليعة من الفرسان الدلاة، يقودها ضابط يدعى أوزون على ، يتبعها والى الشرطة والأغا « محافظ المدينة » والمحتسب ويليهم الوجاقلية ، ثم كوكبة من الجنود الأرناؤود يقودهم صالح قوش ، ثم المماليك يقودهم سليمان بك البواب ، ومن بعدهم بقية الجنود الأرناؤود فرسانا ومشاة ، وعلى أثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب .

سار الموكب على هذا النظام ، منحدرا إلى باب الغرب بالقلعة ، منسربا فى ذلك الطريق الضيق الوعر ، فاجتازت الباب طليعة الموكب ، ثم رئيس الشرطة ثم المحافظ ومن معه ، ثم الوجاقلية ، ولم يكد هؤلاء يجتازون باب الغرب حتى ارتج الباب وأقفل من الخارج فجأة ، إقفالا محكما فى وجه المماليك ، ومن ورائهم الجنود الأناؤود ، وكانوا عالمين بما تدل عليه هذه الإشارة ، فتحولوا عن الطريق فى صمت وسكون ، وتسلقوا الصخور التى تكتنفه ، وتعلوه يمينا وشمالا ، وأخذوا مكانهم على الصخور ، والأسوار والحيطان المشرفة عليه ، ولم يتنبه المماليك بادئ الأمر إلى أن الباب قد أقفل ، واستمروا يتقدمون متجهين إليه ، ولكن لم تكد تبلغه صفوفهم الأولى حتى رأوه مغلقا فى وجوههم ، ومقفلا إقفالا تاما ، وأبصروا الأرناؤود يتسلقون الصخور المشرفة عليهم ، فتوقفوا قليلا عن المسير ، وتضامت صفوفهم المتلاحقة بعضها إثر بعض ، ولم

تمض هنيهة حتى دوى طلق نارى من نوافذ إحدى التكنات ، فكان هذا نذيرا بإنفاذ المؤامرة ....

ذلك إذ لم تكد تلك الطلقات تدوى فى الفضاء ، حتى انهال الرصاص دفعة واحدة على المماليك وهم محصورون فى هذا الطريق الغائر فى الأرض ، فالباب ضخم مقفل ، والجنود الأرناؤود من ورائهم ومن فوقهم وعن يمينهم وشمالهم ، يتناولونهم برصاص بنادقهم .

لم يستطع المماليك دفاعا عن أنفسهم ، ولم يكن لديهم الوقت ولا القدرة على الحركة ، أو الرجوع القهقرى ، أو النزول عن جيادهم ، لضيق المكان الذى حصروا فيه ، ولأنهم جاءوا الاحتفال من غير بنادق ولا رصاص ، ولم يكونوا يحملون سوى سيوفهم ، وهيهات أن تعمل السيوف فى ذلك الموقف شيئا ...!!! ، فانصب عليهم الرصاص وحصدوهم حصدا ، وجاءهم الموت من كل مكان .

ولما سقطت الصفوف المكشوفة من المماليك تتخبط بدمائها ، أمكن الباقون أن يترجلوا عن جيادهم ، وأرادوا النجاة بأنفسهم من تلك الحفرة المهلكة التى كانوا مكدسين فيها ، فتسلق بعضهم الصخور المحيطة بالطريق بعد أن خلعوا ما كان عليهم من الفراوى والملابس الثمينة ، ليسهل عليهم الفرار ، ولكن الرصاص كان يتلقفهم أينما صعدوا ، فلا تلبث أن تتساقط جثثهم فى جوف الطريق ، ومن هؤلاء شاهين بك الألفى ، الذى تمكن فى عدة من مماليكه أن يتسلق الحائط وصعد إلى رحبة القلعة ، وانتهى إلى عتبة قصر صلاح الدين ، فعاجله الجنود الأرناؤود برصاصة أردته صريعا ، واستطاع سليمان بك البواب

أن يجتاز الطريق وجسمه يقطر دما ووصل إلى سراى الحرم واستغاث بالنساء صائحا (فى عرض الحرم) ، وكانت هذه الكلمة ، تكفى فى ذلك العهد لتجعل من يقولها فى مأمن من الهلاك ، ولكن الجنود عاجلوه بالضرب حتى قطعوا رأسه ، وطرحت جثته بعيدا عن باب السراى ، وتمكن بعض المماليك من الوصول إلى حيث كان طوسون باشا راكبا جواده ، منتظرا أن تنتهى تلك المأساة ، فتراموا على أقدامه طالبين الأمان ... ولكنه وقف جامدا لا يبدى حراكا ، وعاجلهم الجنود بالقتل ، وتكدست جثث القتلى بعضها فوق بعض فى ذلك المضيق وعلى جوانبه ، حتى بلغ إرتفاع الجثث فى بعض الأماكن بضعة أمتار ، واستمر القتل إلى أن أفنى كل من دخل القلعة من المماليك ، ومن لم يدركه الرصاص مما وقع تحت جثث الآخرين ، أو فر فى نواحى القلعة ، أو تخلف عن الموكب ، ساقه الأرناؤود إلى الكتخدا بك (نائب الوالى) فأجهزوا عليه ضربا بالسيوف .

واستمر القتل من صحوة النهار إلى هزيع من الليل حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث ، وهكذا دخل القلعة فى صبيحة ذلك اليوم أربعمائة وسبعون من المماليك وأتباعهم فقتلوا جميعا .

أحكم محمد على تدبير المؤامرة ، فلم يقف على سرها إلا أربعة من خاصة رجاله وهم حسن باشا قائد الجنود الأرناؤود ، والكتخدا بك محمد لاظ أوغلى ، وصالح قوش أحد ضباط الجند ، وإبراهيم أغا حارس الباب ، وصالح قوش السابق ذكره كان يقود كوكبة من الجنود الأرناؤود وهو الذى أمر بإقفال باب الغرب وأعطى إلى رجاله إشارة القتل .

وبينما كان صالح قوش يتأهب لتنفيذ المؤامرة ، كان محمد على جالسا فى قاعة الاستقبال ومعه أمناءه الثلاثة ، وقد ظل فى مكانه هادئا إلى أن بدأ الموكب يتحرك ، واقتربت اللحظة الرهيبة ، فساوره القلق والاضطراب ، وساد القلعة صمت عميق ، إلى أن سمع إطلاق أول رصاصة وكانت إيذانا ببدء المذبحة ، فوقف محمد على وامتقع لونه ، وعلا وجهه الاصفرار وتنازعته الانفعالات المختلفة ، وأخذ يسمع دوى الرصاص ، وصيحات الذعر والاستغاثة وهو صامت لا ينبس بكلمة ، إلى أن حصد الموت معظم المماليك وأخذ صوت الرصاص يتضاءل وكان ذلك إعلانا بانتهاء المؤامرة ، وعندئذ دخل عليه المسيو ماندريش ، طبيبه الإيطالى وقال له : « لقد قضى الأمر واليوم يوم سعيد لسموكم » .... فلم يجب محمد على بشىء ، وطلب قدحا من الماء فشربه جرعة طويلة ، وخرج الكتخدا بك وأخذ يجهز على الباقين من المماليك .

أثر هذه المذبحة فى الشعب :

يقول المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى فى كتابه « تاريخ الحركة القومية » الجزء الثالث : إن الفتك بالمماليك على هذه الصورة الرهيبة ، كان له أثر عميق فى حالة الشعب النفسية ، لأن مذبحة القلعة ، أدخلت الرعب فى قلوب الناس ، وكان من نتائجها أن استولت الرهبة على القلوب ، فلم يعد ممكنا إلى زمن طويل ، أن تعود الشجاعة والطمأنينة إلى نفوس الناس ، والشجاعة خلق عظيم ، تحرص عليه الأمم الطامحة إلى العلا ، وهى قوام الأخلاق والفضائل القومية ، فإذا فقد الشعب

الشجاعة ودخلت الرهبة مكانها ، كان ذلك نذيرا بانحلال الحياة القومية وفسادها .

فالرهبة التى استولت على النفوس بعد مذبحة القلعة كان لها أثرها فى إضعاف قوة الشعب الخلقية والمعنوية ، وتلك خسارة قومية كبرى ، فإنما الأمم أخلاق وفضائل .

وقد رنا على الشعب ذهول عميق ، عقب هذه المذبحة الرهيبة ، ولم يعد يسمع صوت من الشعب يعارض محمد على بعد ذلك طيلة مدة حكمه التى بلغت سبعا وثلاثين سنة ، قضاها فى الحكم آمرا مطاعا .

وجعلت هذه الحادثة محمد على أكثر اطمئنانا على انفراده بالحكم ، ولم يصادف بعد ذلك أية روح للمعارضة أو المحاسبة أو النقد .

الغروب المجيد

وأخيرا غربت شمس المرادية ، التى ظل نورها متألقا أكثر من نصف قرن ، بعد أن ذاقت أعظم أمجاد الحياة ، وأعذب الأمانى ، ثم بعد ذلك ذاقت كؤوس الهوان فى عهد محمد على ، وبعد ما تقلدت أعنة المجد فى عهد على بك ومراد بك ، كبا بها القدر فى عهد مظالم محمد على ، ونكبت أشد نكبة بمأساة القضاء على المماليك .

ولكن صاحبة الجبهة العالية ، التى انطبقت عليها سمات الكرامة والعزة والإباء لم تنحن ، وما زالت مشرقة وضاءة ، ورغم ضياع أموالها ومصادرة ممتلكاتها ، بقيت إلى آخر لحظة من حياتها موئل الفقير وملاذ المحتاج .

وفى الثلاثين من أبريل عام ١٨١٦ م ، ١٢٣١ هـ ، انتقلت هذه الروح العظيمة من دار الفناء إلى سماء الخالدين ، ودفنت فى القرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعى على مقربة من قبر زوجها على بك الكبير .

وقد نعاها الجبرتى فى وفيات ذلك العام وقال فى ترجمتها : « إنها عمرت طويلا مع العز والسيادة والكلمة النافذة ، وأكثر نساء الأمراء من جواريها ، ولم يأت بعد الست شويكار من اشتهر ذكره وخبره سواها » . وقال : « إنها كانت من الخيرات ولها على الفقراء بر وإحسان ، ولها من المآثر : الخان الجديد ، والصهريج داخل باب زويلة ، توفيت يوم الخميس العشرين من جمادى الأولى بمنزلها المذكور بدرب عبد الحق ، ودفنت فى

القرافة الصغرى بجوار الإمام الشافعى .

وكأنها المقصود بها حين رثا أحد الشعراء إحدى كرائم السيدات فقال :

أى خطب فى الكون أعظم مما ... ترك الناس ذاهلين هيامى ؟
ربة البر كم لها من أياد ... عمت المعوزين والأيتاما
وانحياز إلى التقى وارتياح ... أتعبَت منه كاتبين كراما
تركت زخرف الحياة وسارت ... وشذا ذكرها يعم الأناما
لزمت طول عمرها المجد والسؤ ... دد والفخر والوقار التزاما
أرضت الله والخلائق لما ... أغضبت من ندى يديها الغماما
علمت أن ذلك يعيش فان ... فأرادت دار البقاء مقاما
أقبلت نحو ربها بمحيا ... يبسم البشر من سناه ابتساما
إذ أحاطت بها ملائكة الخيـ ... ـر يمينا ويسرة وأماما
حملتها إلى الضريح كرام ... فأقلت منها الغمام ركاما
دفنوها فأى كوكب مجد ... غيبوه حتى ينير الظلاما
هذه سنة الزمان وعادا ... ت الليالى ودأبهن دواما
وجيوش الأرواح لا بد تلقى ... فى وغى الموت والمنايا انهزاما
وانحلال المركبات قضاء ... فهو لا شك يلحِق الأجساما
ليس يجدى الأسى تعز اصطبارا ... والق بالبشر بعد ذا الأياما

مركز المرادية فى التاريخ بالمقارنة بالملكة شجرة الدر

تشاء الأقدار العجيبة أن تمد حكم المماليك بامرأتين عظيمتين فى تاريخ مصر : الأولى : أعظم امرأة ظهرت فى تاريخ مصر فى العهود الوسطى وهى الملكة شجرة الدر ، آخر ملوك الدولة الأيوبية . والثانية : هى السيدة نفيسة المرادية ، فقد ماتت عام ١٨١٦ م بعد أن ثبت محمد على قواعد حكمه ، وقضى على حكم المماليك نهائيا فى مذبحته الشهيرة ، والتى سيأتى ذكرها فيما بعد ١٨١١ م وبقيت نفيسة المرادية على قيد الحياة ، تشاهد غروب ملكهم ، وأفول مجدهم ، وكانت آخر شخصية منهم .

كانت الملكة شجرة الدر الواضعة الحجر الأول فى حكم المماليك ، لأنها تنازلت بمحض رغبتها عن الملك لزوجها الأمير عز الدين أيبك كبير المماليك البحرية ، بعد أن تولت الملك ثمانين يوما فقط ، وتولى بعدها زوجها باسم : الملك المعز ، وذلك فى آخر ربيع الثانى عام ٦٤٨ هـ

وكانت السيدة نفيسة المرادية زوجة ملك عظيم ، وهو على بك الذى استقل بحكم مصر ، وقطع صلاته بدولة الخلافة ، وخلق لمصر كيانا مستقلا ، ولكن الأقدار لم تمهله لكى يثبت دعائم هذا الملك ، وتزوجت بعده مراد بك الذى حكم مصر زهاء ثلاثين عاما .

تسلمت الملكة شجرة الدر حكم مصر بعد وفاة الملك طورانشاه عقب هزيمته للإفرنج فى أبريل عام ١٢٥٠ م عن جدارة واستحقاق لأنه

بفضلها وبفضل سياستها فى توجيه الأمور انتصرت مصر على الصليبيين فى موقعة حطين ، وتتوج هذا النصر بأسر لويس التاسع ، ولما مات زوجها الملك الصالح نجم الدين أثناء الحرب ، وتولى ابنه طورانشاه ، وقفت خلفه تشد من أزره ، وأشرفت على ترتيب خططه ، وتهيئة سياسته ، فكانت بمثابة الرأس المدبر لشئون البلاط والجيش فى هذا الظرف العصيب .

فلما مات الملك طورانشاه ، لم ير زعماء الدولة وقادتها خيرا من تولية المرأة التي قادتهم للنصر فى أحرج المآزق عرش مصر ، فتولت عرش مصر للمرة الأولى والأخيرة فى شهر صفر عام ٦٤٨ هـ . وتلقبت الملكة الجديدة بألقاب متعددة مثل : « والدة الخليل » و« المستعصمية الصالحية » و« ملكة المسلمين عصمة الدنيا والدين » وغيرها . وأقيم للسلطنة نائب قوى هو الأمير عز الدين أيبك كبير المماليك البحرية ليعاونها فى تدبير الحكم .

وبالرغم مما أبدته شجرة الدر من حزم وبراعة فى تسيير الشئون ، وتصفية الموقف مع الصليبيين وإجلائهم عن مصر ، فقد كان جلوس امرأة على عرش مصر نذيرا بوقوع الفتنة واضطرام الخلاف فى أنحاء المملكة ، ولا سيما فى الشام ، حيث أبى معظم الأمراء أن يحلفوا يمين الطاعة للملكة الجديدة ، فعندئذ رأت الملكة شجرة الدر أن تتزوج من الأمير عز الدين أيبك ، ولما لم تفلح هذه الخطوة فى تهدئة الأمور رأت أن تتخذ الخطوة الحاسمة ، وأن تفتدى سلام المملكة بذلك العرش الذى رفعها القدر إليه ، فتنازلت عنه لزوجها بعد أن اعتلته ثمانين يوما فقط ، وكان الملك المعز هو أول حكم المماليك البحرية فى مصر .

وجدير بنا أن نقارن بين الملكة شجرة الدر التى خلدت ذكراها

بجهادها ووطنيتها وشجاعتها وهى بعيدة عن العرش ، وبين السيدة نفيسة المرادية وهى آخر شخصية شهيرة فى المماليك ، وقد خلدت ذكراها بجهادها ووطنيتها وشجاعتها وهى تراقب انهيار مجدهم وانتهاء دولتهم ، وليس لها من سلطان إلا على قلوب المصريين الذين نالوا من زعامتها الاجتماعية والأدبية أكثر مما نالوا من بعض أمرائهم وحكامهم من المماليك .

كانت الملكة شجرة الدر أعظم امرأة فى تاريخ مصر والعصور الوسطى ، وكانت السيدة نفيسة المرادية أعظم امرأة فى تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر ، وأول امرأة عظيمة فى التاريخ الحديث .

لم تتلطف الأقدار بالملكة شجرة الدر وتدعها على العرش فى دعة وأمن لكى تحكم البلاد التى حمت استقلالها ، وردت المعتدين عليها ، فحرمت ما تستحقه ونزلت عن عرشها ، وكذلك لم تتلطف الأقدار بالسيدة نفيسة ملكة مصر غير المتوجة ، فقد تنكر لها التاريخ لأنها من المماليك الذين ناصبهم محمد على العداء ، وأنكر عليهم حق الحكم ، وغمط الكتّاب والمؤرخون حق هذه السيدة المجيدة التى عاشت زهاء نصف قرن ترعى مصالح الشعب وتعمل فى سبيل مصلحته ، فلم يذكروا لها ما هو جدير بأن يذكر عنها ، وتحدث عنها الجبرتى لماما ، وأنصفها المستشرقون الذين زاروا مصر فى حياتها .

وهكذا تتشابه المرأتان فى أن كلا منهما كانت عظيمة عصرها وأن كلا منهما كانت أسطورة عبق بعطرها تاريخ المرأة على مر الزمان ، كما أن إحداهما — شجرة الدر — بدأ بها عهد ، والثانية — نفيسة أم المماليك — انتهى بها عهد ...

وإن كان ذلك العهد ، بين العظيمتين ، هو عهد المماليك !!!

المراجـــع

١ ـــ فتح مصر الحديث أو نابليون فى مصر : أحمد حافظ عوض ،
٢ ـــ الحملة الفرنسية وظهور محمد على : محمد فؤاد شكرى ،
٣ ـــ على بك الكبير : أحمد خيرت سعيد ،
٤ ـــ عصر المماليك : أنور زقلمة ،
٥ ـــ المماليك فى مصر : أنور زقلمة ،
٦ ـــ تاريخ مصر لابن إياس جزء ٢ ، ٣
٧ ـــ عجائب الأخبار : لعبد الرحمن الجبرتى جزء ١ ، ٢ ، ٣
٨ ـــ مصر فى عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل : على أحمد شكرى
٩ ـــ تاريخ مصر : عمر السكندرى وسليم حسن

10 – James Bruce Travels to discover the source of the Nile in the years 1769 – 73

11 – Voyage en Egypte et Syrie pendant les années 1783 – 85 par C.F. Volney

12 – A history of the revolt of Ali Bey Against the Ottoman by Stavro Lusignian 1784.

طبع فى لندن

13 – سياحة فى أفريقيا ومصر وسوريا من ١٧٩٢ ـــ ١٧٩٨ م

طبع فى لندن سنة ١٧٩٩ by Browne

14 – Lettres sur l'Egypte par Savory

١٥ ـــ تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى : الأجزاء الثلاثة الأول

١٦ ـــ تاريخ دولة المماليك فى مصر لوليم موير ترجمة محمود عابدين ، سليم حسن

١٧ ـــ زعيم مصر الأول « السيد عمر مكرم » الأستاذ محمد فريد أبو حديد

١٨ ـــ محمد على الكبير للكاتبة الألمانية لويزا مولباخ : ترجمة دار الهلال

١٩ ـــ مصر فى القرن الثامن عشر جزء ٣ : محمود الشرقاوى

الفهـرس

كتب للمؤلف

١ ــ الثائر العظيم عبد الله النديم ١٩٥٨

الحائز على جائزة وزارة التربية والتعليم

٢ ــ عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية ١٩٧٣

الحائز على جائزة مجمع اللغة العربية

٣ ــ مصطفى كامل أضواء جديدة على حياته ١٩٨١

إصدار دار الهلال

٤ ــ إسماعيل صبرى باشا شيخ الشعراء ١٩٨٥

إصدار الهيئة العامة للكتاب

رقم الإيداع : ٨٩٨٨ / ٨٩

من هى أم المماليك ؟!

إنها السيدة نفيسة المرادية ، زوجة على بك الكبير ، الرجل الذى انتزع استقلال مصر كاملا من براثن الحكم العثمانى الغاشم ، قبل أن يولد محمد على الكبير .. إنها تلك الجارية الجميلة التى أصبحت بثقافتها وعلمها وذكائها ، سيدة مصر الأولى فى ذلك الحين ، حتى إنه فى عهد الحملة الفرنسية ، كان قصرها ملتقى العلماء وزعماء الشعب ، وفيه توضع الخطط ، وتدبر حركات رجال المقاومة ضد العدو الفرنسى المحتل ..

ولفرط عظمتها ونفوذها ، كان الحكام الجدد الذين يرقون إلى مناصبهم من قِبَل الدولة يفدون إلى قصرها ــ بصفة شخصية ــ قبل تسلمهم زمام أعمالهم ؛ ليقدموا لها فروض الولاء والإجلال ، ويتلقون التوجيهات منها كأم وكزعيمة .. وكانت دائما توصيهم بالعدالة بالنسبة للشعب ..

ومن أدوارها الوطنية البارزة إبان الحملة الفرنسية أنه كان لها « صالون » اجتماعى أدبى ، يجتمع فيه علماء الحملة الفرنسية وقوادها فتمنحهم العطايا وتجزل لهم الهدايا ؛ لتعرف المزيد من تحركات الجيش الفرنسى وخططه ، تمد بها رجال المقاومة المصريين ، رغم أزمتها المالية !!

وبعد جلاء الجيوش الفرنسية ، وبعد أن آل الأمر إلى محمد على باشا عام ١٨٠٥ ، هال ذلك الحاكم ما تتمتع به السيدة نفيسة من نفوذ أدبى بين أفراد الشعب ، فأمعن فى إيذائها وصادر أملاكها ، ولكنها مع ذلك لم تُحْنِ هامتها ، وظلت مرفوعة الرأس .. بل أبعد من ذلك ، ظلت كما كانت دائمًا ، ملاذاً للمظلومين من أبناء الشعب ..

ويكفى دليلا على مكانة هذه المرأة فى قلوب الجميع من وطنيين أو فرنسيين ، أنه لما عاد نابليون إلى فرنسا ، وأصبح إمبراطور فرنسا العظيم ، لم تنسه مشاغل الإمبراطورية أن يكلف سفيره فى مصر للعناية بشئون أم المماليك ، وتوصية محمد على باشا بشأنها .

وتلك لعمرى أروع الدلائل على تأثير هذه المرأة الخالدة ، حتى على أصحاب العروش فى أوربا ..

دار العرب للبستانى

٢٨ شارع كامل صدقى بالفجالة